لماذا أنا إرهابـــي؟!
ولماذا أنت كافـــر؟!

الأستاذ الدكتور

محمد محمد داود

رئيس جمعية المعرفة

الأستاذ بجامعة قناة السويس

لماذا أنا إرهابـــي؟!
ولماذا أنت كافـــر؟!

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ
إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾

(غافر: ٤٤)

الإهـــداء

إلى شباب نسيناهم وأهملناهم

حتى بحثوا عن الحياة في الموت!

مقدمـــة

بســم الله الــرحمن الــرحيم، والحمــد لله رب العــالمين، والصلاة والسلام على نبي الله ورسوله سيدنا محمد، رحمـة الله للعالمين، وبعد:

فهذه سطور تتفاعل مع الواقع، تغوص فى أعماقـه، تُثـير أسئلة محورية مستحقة بشأن شبابنا:

- أبناءُ مَنْ هؤلاء الشباب؟!
- من عَلَّمهم ومن رَبَّاهم؟!
- وكيف نزل بهم ما نزل؟!
- ومن يتحمل مسؤولية ما هم فيه؟!
- ومن أين أتت فتنة التكفير؟!
- ومن أين جاءت محنة الإرهاب؟!
- ومن الذي دفع بشبابنا إلى أن يبحثوا عن أمـل في الحيـاة من خلال قوارب الموت على شواطئ ليبيا؟!
- ومن الذي اضـطرهم إلى أن يرتمـوا في أحضـان العـدو الصهيوني بحثًا عن فرصة عمل؟!

- من .. ومن .. ومن .. ؟؟؟!!!
- وأين كُـنَّـا ... أنا وأنت وهو وهي ..؟!
- وهل سنظل فى جمودنا العقـلي، وسـلبياتنا المتراكمـة، أم يكون منا الوعي والقدرة على المواجهة؟!

- كما يثير الكتاب أسئلة مستحقة بشأن الوطن:
  - لماذا لا يكون لنا موقع على الخريطة العلمية العالمية؟!
  - ومن أفسد التعليم، وجعل شهادات التخرج في الجامعة شهادات زور؟!
  - من الذي أحالنا إلى مؤخرة الـدول في الترتيـب العـالمي للجامعات؟!
  - من الذي رسَّخ للفساد في مجتمعنا حتى أصبح قاعدة متمكنة؟!
  - ما السبب في تدهور الأخلاق والقيم في المجتمع؟!
- ويثير الكتاب أيضًا أسئلة مستحقة بشأن أمة الإسلام:
  - لماذا كل هذا العداء ضد المسلمين؟!
  - وكيف سقطت القدس؟!
  - وكيف سقطت بغداد؟!
  - وكيف سقطت من قبل بلاد الأندلس؟!
  - وكيف زُرِعَت الفتن في أرض الإسلام؟!

- وكيف أصبح حالنا الآن في معظم البلدان الإسلامية، مؤسفًا ومؤلمًا، بل مأساويًّا؟!

والسؤال المستحق هنا:

- من مزَّق وَحْدة المسلمين؟!
- ومن أشعل بلادهم حريقًا تُسْفَك فيه الدماء ليل نهار؟!
- ومن الذي جعلهم في أسفل درجات السلم الحضاري؟!

سيقولون: الأعداء والمؤامرة !!!

ولكن: ماذا يصنع الأعداء كلهم لو كان المسلمون في تماسك واتحاد؟!

- ماذا تفعل جرثومة المرض إذا كانت مناعة الجسم قوية؟!
- وإذا كان كلنا يتكلم عن الوحدة الإسلامية، فمن المُتفرِّقون إذن؟!
- وإذا كان كلنا يَدَّعي الوسطية، فمن الغُلاة إذن؟!

وأخيرًا....

أين الخلل وفيمَ النجاة؟!

محمد محمد داود

في الفجر ١/ ٩/ ٢٠١٦م

المحنة .. ومسلسل الفوضى الخلاقة!!

اللغة .. الكلمات .. تقف عاجزة عن التعبير عن بشاعة المحنة التي تمر بها الأمة على أرض فلسطين والعراق وسوريا واليمن وليبيا، وجميع المنطقة العربية الإسلامية.

وهذه المحنة البشعة ليستِ الأولى في تاريخ الأمة، فقد مرت بالأمة نكبات ومذابح من كيد أعدائها، فهنالك مذبحة الصليبيين في بيت المقدس في عهد صلاح الدين، ومذابح الأندلس عند سقوط غرناطة، ومذابح المسلمين الهنود وقت انفصال باكستان عن الهند، ومذابح صابرا وشاتيلا، ومذابح البوسنة والهرسك، والآن هول الكارثة على أرض سوريا واليمن وليبيا والعراق ومذابح بورما.

وتزداد بشاعة المحنة المعاصرة؛ لسببين:

الأول: موقف العالم من هذه الكوارث والصمت المريب من جانب، والتنافس الدولي على ثروات المنطقة من جانب آخر.

الثاني: الظروف المعاصرة من بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر والهجمة الشرسة ضد المسلمين، وما عليه العرب

من تفرق وتمزق وضعف، في مقابل ما عليه القوى الصهيونية التي لم تكن قط أشد تمكنًا وسيطرة كاليوم.

ولسنا في مجال وصف المحنة، فما تراه العين من بشاعة يكفي ويغني عن الكلام، كما أننا لسنا في مجال إثارة العواطف الملتهبة؛ لأن بشاعة المحنة لا تداويها الكلمات ولا تفيدها الهتافات.

وإنما نحن أمام محاولة جادة لوضع أمرين حقيقيَّين بين يدي شباب الأمة:

الأول: أن نتعلم الدرس؛ كي لا تتكرر هذه المحنة مع أجيال أخرى فى المستقبل.

الثاني: تحديد طريق النجاة لهذه الأمة من هذه المحنة البشعة.

وما من شك في أن المحنة لها وجوه عديدة: سياسية وعسكرية واجتماعية...إلخ، وعلماء كل تخصص هم أحق الناس بالحديث فيه.

ومن هنا كان البيان لفتنة التكفير وجريمة الإرهاب، ووصف الدواء ببيان الوسطية والتيسير.

إن المحن البشعة التي تصيب الأمم يتخذ منها العقلاء دافعًا للتصحيح، وينبغي علينا أولًا أن نعترف؛ نعم أن نعترف بأن المحنة .. الكارثة .. المأساة التي حلت بالمنطقة العربية، ليست جائحة من السماء لا ندري لها سببًا، وإنما هي بما كسبت أيدينا، جزاء دخول عقولنا حارة الجمود والوقوف عند حدود الماضي نتباهى به ونتغنى بأمجاده، وغفلنا عن مسئوليتنا عن الحاضر والمستقبل ... فَحلَّ بنا الضعف وأصابنا الهوان؛ فتلاعب بنا الأعداء، وكم تساءل العقلاء: هل نحن شعوب ترتد إلى الوراء، ولا تحسن النظر إلى المستقبل؟!!!

ومن العجيب والمؤلم أننا نستقبل الكوارث بالوَلْوَلة والصياح .. نستنكر ونشجب وندين، إلى أن وصل بنا الأمر إلى أنَّ جهدنا قد انحصر في إثبات خطأ العدو في حقنا باحتلال الأرض ونهب الثروات واحتلال العقول وتغريب الفكر، وتفكيك الأوطان، وكأن ذلك سيعفينا من مسئوليتنا عن هول الكارثة التي وقعت بنا جراء سلبيتنا وغفلتنا وجمودنا، وحتى هذه الحقيقة «حقيقة أن إسرائيل محتلة ولا حق لها فى أرض فلسطين» لم نستطع إثباتها في واقعنا المعاصر!!

فهناك من ينادي من أبناء جلدتنا بأحقية اليهود في أرض فلسطين، وهناك من يُدلِّس في حقيقة إسلامية المسجد الأقصى!!!

العجيب أننا نهدم أوطاننا بأيدينا ونحن لا نُحْسِن البناء، ويتلاعب بنا الأعداء والخصوم تحت اسم زائف «الربيع العربي»، وما هو إلا «الخراب العربي» وتحت اسم «الحرية» وما هي إلا «الفوضى».

أيها العرب .. أنتم الآن في مسلسل «الفوضى الخلاقة» وأنتم جزء من هذا السيناريو الأمريكي للتفكيك.. للإضعاف، تستغل أمريكا فرقتنا .. تنازعنا .. ليكون مشروع التفكيك والفوضى الخلاقة بأيدينا .. وبدون تكلفة الحرب والمواجهة، بل بهذه القوة الناعمة الخبيثة الماكرة، الجيل الرابع من الحروب التي تقوم على الشائعات والحروب النفسية.

تدفعنا أمريكا تحت حلم المستقبل وباسم الحرية والديمقراطية إلى قتل أنظمتنا وإسقاطها (جيش / شرطة / قضاء) بوهم أحلام المستقبل الوردي .. ثم نفتح أعيننا بعد فوات الأوان، فلا نجد جيشًا ولا نجد شرطة ولا أمنًا ولا

قضاء .. ولا دولة .. ونجد أمامنا أمريكا بمخطط التقسيم والتفكيك تمامًا كما حدث في السودان .. وفي العراق .. وكما يحدث الآن على أرض سوريا واليمن وليبيا، وتبقى إسرائيل الكيان الأكبر والأقوى والمسيطر في المنطقة.

ألم نسأل أنفسنا ..عقولنا ... تاريخنا:

ما هذه الملائكية التي حلَّت بأمريكا والغرب فيما أسمته بالربيع العربي (خداع لغوي أمريكي) وفي الوقت نفسه يكون الإفراط في العنف والتدمير والإهلاك لكل ما هو عربي وإسلامي.

ما الذي ينتظرنا نحن العرب والمسلمين في هذا السيناريو الأمريكي المتكرر؟

إنه واضح ... وضوح الشمس في كبد السماء وقت الظهيرة .. إن أمريكا تكرر سيناريو طالبان.. وابن لادن – دعَّمتهم وسلَّحتهم واستخدمتهم في الخطوط الأمامية المباشرة لمصلحتها ضد روسيا تحت عنوان الجهاد الإسلامي؛ حتى استنفدت مصلحتها من هذا الكارت ثم أحرقته وأدانته ودمرته.

والنسخة المستحدثة من طالبان وابن لادن الآن هي داعش؛ لتشويه الإسلام والمسلمين، ولتكون (مسمار جحا)

الذي تتخذه ذريعة للتدخل للهدم والإقصاء ورسم الخريطة الجديدة للمنطقة على أرض الواقع. وعن طريق الاختراق الثقافي تم نشر ثقافة التكفير، وثقافة الإرهاب الأسود في البلاد العربية والإسلامية ليكون أداة فَعَّالة وخطيرة لإثارة الفرقة والنزاع والصدام والشقاق.

ويتساءل العقلاء: ماذا كنا ننتظر من عدونا؟!

هل كنا ننتظر أن يقدم لنا هدية؟! أو أن يسعى في مصالحنا؟!

هل ننتظر من عدونا إلا أن يتربص بنا ويكيد لنا ويدبر لإهلاكنا؟!

أليس هذا هو دوره؟!

بلى إنه دوره الذي يؤديه بامتياز واقتدار، لكن المشكلة فينا! والمأساة في دورنا الغائب عن الساحة، في سلبيتنا وجمودنا وتفرقنا وتنازعنا!!

المشكلة في وعينا المفقود بكل أبعاد الأزمة وجوانبها!!

المشكلة في تغييب العقل العربي عن ساحة الإسهام في الإنتاج الحضاري وامتلاك رؤية للمستقبل لها وسائلها وآلياتها!!

المشكلة في أننا نمتلك ثروات طائلة لكن تخلفنا جعلنا نتسول طعامنا ووسائل حياتنا.

المشكلة في أننا لم نحسن قراءة الواقع ولم نفقه مراتب الأعمال!!

المشكلة في أننا نتغنى بالمثاليات النورانية من القرآن والسنة، في حين أن واقعنا أبعد ما يكون عن الالتزام بهذه المثاليات!!

وفي ظل البطالة العقلية والذاكرة المفقودة ملأ العبث مؤسساتنا حتى صار الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية مضرب المثل.

المشكلة أننا لا نريد أن ننصف الإسلام من أنفسنا، وما زلنا نعاني من البطالة العقلية والذاكرة المفقودة التي لا تستفيد من التجربة ولا تنتفع من عِبَر التاريخ!!

إن الواقع يكشف لنا عن حقيقة مُرَّة، وهي أن سلبيتنا المتراكمة صارت أخطر علينا من عدونا!!

والسؤال الذي يفرض نفسه بقوة:

هل يمكن أن نبقى مسلوبي الإرادة، مشلولي التفكير إلى أن يهلكنا مرض الجمود والسلبية، فيذهب الله بنا ويأتي بقوم غيرنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟!

أم ستكون منا اليقظة وندرك دورنا الغائب.. ونسترد وعينا المفقود.. فتتحقق لنا الخيرية وتكون لنا المقدمة بين الأمم؟

والفائز حقًّا هو من يدرك دوره، والله المستعان.

المبحث الأول

فتنة التكفـــــير

قضية التكفير من أهم وأخطر القضايا الفكرية التي يعاني منها المجتمع المعاصر، حيث شاع الحديث عن التكفير واللعن والإخراج من المِلَّة، وأصبح كثير من الناس يقعون في فتنة التكفير بعلم وبغير علم، يُكفِّرون من كرهوا، ويزيحون شبهة التكفير عمَّن أحبوا، دون الرجوع إلى الضوابط الشرعية الأصيلة؛ لذا وجب بيان الأسباب التي أدت إلى شيوع التكفير عند بعض الفرق قديمًا كالخوارج وامتدادها في الوقت المعاصر، وبيان الحقائق الخالصة بالآيات والأحاديث الواردة في تلك القضية.

- ومن الحقائق الخالدة التي يؤكدها القرآن الكريم أنه ليس في الإسلام سلطة دينية لأحد إلا سلطة الموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ... قال الله لنبيه ورسوله سيدنا محمد ﷺ ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ ﴾ [الرعد: ٧].
- ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٥،

الفتح: ٨]، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢].

- ومن قواعد الأحكام في دين الإسلام أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حُمِلَ على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر.

ويقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي: «إنه لا يسارع إلى التكفير إلا الجهلة»[1]، ويؤكد القرطبي على أن السرائر يعلمها الذي يعلم السر وأخفى، فينبغي إجراء الأحكام بالظواهر والله يتولى الخفايا والسرائر. واستشهد بالآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

- والقاعدة الذهبية القرآنية توجِّه المسلم إلى أن يتجنب التعميم في الأحكام؛ لأن التعميم في الأحكام يُحوِّل

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد الغزالي، مكتبة صبيح، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٤٣.

الاستثناء إلى قاعدة، وهذا خلل فادح والقرآن يؤكد قاعدة: «**ليسوا سواء**»، قال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

- وقد حذر رسول الله ﷺ كل مؤمن من التسرع في اتهام غيره من المسلمين بالكفر؛ لأنها تعود عليه إن لم تكن في أخيه، فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما**»[1].
- بل إن من تلفظ بلفظ الكفر تحت ضغط وإكراه، مع استقرار الإيمان في القلب فليس بكافر، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].
- ولا اعتبار بصدور كلمة تدل على الكفر وقائلها لا يقصد الكفر، فقد أخرج مسلم عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أنه قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ الله ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَصَبَّحْنَا الحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ،

(١) البخاري (٨/ ٣٢) كتاب: الأدب، باب: من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال.

فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا فَقَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نفسي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِي ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَقَتَلْتَهُ؟»** قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلَاحِ»، قَالَ: **«أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟»** فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ، قَالَ: «فَقَالَ سَعْدٌ: وَأَنَا وَالله لَا أَقْتُلُ مُسْلِمًا حَتَّى يَقْتُلَهُ ذُو الْبُطَيْنِ يَعْنِي أُسَامَةَ»، قَالَ: «قَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]؟» فَقَالَ سَعْدٌ: «قَدْ قَاتَلْنَا حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ، وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ»[1].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب: بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد، حديث رقم (٤٢٦٩) بنحوه مختصر، ومسلم: كتاب الإيمان، باب: تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله ...، حديث رقم (٩٦) واللفظ له من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

- **تحذير**

ولا يغرنك ما أنت عليه من طاعة وما عليه أخوك من المعصية، فالعبرة بالخواتيم. فقد أخرج أبو داود في سننه عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول أقصر، فوجده يومًا على ذنب، فقال له: خلني وربي، أبُعِثْتَ عليَّ رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أوْ لا يدخلك الله الجنة، فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالمًا؟ أو كنت على ما في يدي قادرًا؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار**»[1]، إن فعل الطاعة بالجوارح مع انطواء العقل والقلب على التألي على الله تعالى يُوقع العبد في الحرمان دون أن يشعر، نسأل الله السلامة.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٩٠١) كتاب الأدب.

- **سؤال مستحق**

لكن السؤال المهم هنا كيف نحدد الكفر؟ وكيف نحدد الإيمان؟ يعني: ما الكفر؟ وما الإيمان؟

التعريف الجامع للكفر: هو التكذيب بالنبي وبما جاء به النبي ﷺ. في مقابل أن الإيمان هو التصديق بالنبي وبما جاء به النبي ﷺ، وهنا ينبغي أن نفرق بين الإيمان والأعمال؛ فحين يؤمن إنسان بالنبي وبما جاء به النبي ﷺ لكنه لا يعمل به كسلًا وغفلة .. فإنه ليس بكافر، وإنما هو مؤمن عاص يستغفر ويتوب، وسيأتي بيان ذلك عند الحديث عن الخوارج.

- **تنبيهات مهمة:**

قد نبَّه العلماء المُحقِّقون تنبيهات مهمة على مسائل يحسبها الناس من التكفير وهي ليست منه في شيء، من أهمها:

١- **عدم التكفير بارتكاب الذنوب والمعاصي**: فلا يُكفَّر المسلم المؤمن بالله واليوم الآخر بمجرد ارتكابه ذنبًا أو إلمامه بمعصية، سواء أكانت من صغائر الذنوب أم من كبائرها كالزنا وشرب الخمر وعقوق الوالدين، فلا يُعدُّ كافرًا إلا إذا استحل تلك الذنوب والآثام، فإن استحلها كفر، وإن لم

يستحلها فلا يكفر، بل يكون ضعيف الإيمان، وله حكم ما تعاطاه من المعاصي في التفسيق، وإقامة الحدود، وغير ذلك حسبما جاء في الشرع المُطهَّر.

٢- **عدم التكفير بالخطأ أو باعتبار لازم القول**: فلا يمكن الحكم على الناس بالكفر بما أخطأت به ألسنتهم، أو بما تؤول إليه أقوالهم غير المقصودة، وهذا باب لو فُتح يكفر به كل أحد قال قولًا خاطئًا؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٣- **الإعذار بالجهل**: فلا يمكن أن نحكم على أحد بالكفر وهو جاهل بدعوة الإسلام، فأما إذا بلغته الدعوة وكفر بها فهو كافر، وإن لم تبلغه الدعوة فإن الله يرفع عنه العذاب، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

٤- **الإعذار بالإكراه**: وذلك لأن المسلم قد يقع في الكفر مُكرَهًا دون إرادته، يشهد لذلك موقف أنزل الله فيه قرآنًا، فحين أخذ المشركون عَمَّار بن ياسر رضي الله عنه، لم يتركوه حتى سبَّ رسولَ الله ﷺ، وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه، فلما أتى

النبي ﷺ قال له: «**ما وراءك؟**» قال: «شرٌّ يا رسول الله، ما تُرِكْتُ حتى نِلْتُ مِنْكَ يا رسول الله، وذكرت آلهتهم بخير»، وقال ﷺ: «**كيف تجد قلبك؟**»، قال: «مطمئن بالإيمان»، فقال ﷺ: «**إن عادوا فَعُد**»[1].

فلا يُحكم عليه حينئذ بالكفر، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

٥- **الإعذار بالتقليد**: فليس كل منا قد أُوتي أدوات الاجتهاد والاستنباط، ولذلك فقد يقع بعض النَّاس في الكفر عند تقليده لغيره من المسلمين في أفعالهم، فيقلدهم جهلًا بما يقومون به من أفعال كفرية، يُعذر من وقع في الكفر تقليدًا إن كان جاهلًا لا بصيرة له ولا فقه، فهو معذور حتى تقوم عليه الحجة.

• **وخلاصة القول**: أن تكفير الناس أمر خطير منهي عنه، وتكمن خطورته فيما يترتب عليه من استحلال دماء الناس وأموالهم وأعراضهم.

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه، (٢/ ٣٨٩)، حديث رقم: (٣٣٦٢)، وقال على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

● **أهـم شبهات المكفـرين والرد عليها**

١- التكفير بالمعصية.

٢- تكفير الحاكم.

٣- تكفير الأتباع والمحكومين.

٤- تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار كفر.

* * *

١- شبهة التكفير بالمعصية

قامت بدعة الخوارج على أصل أن كل من ارتكب كبيرة من المسلمين فهو من الكافرين المُخلَّدين في النار في الآخرة ما لم يتب منها، ولا يعتبرونه مسلمًا عاصيًا كما هو عند جمهور علماء المسلمين من أهل السنة والجماعة، ولما حكم الخوارج على مرتكب الكبيرة أنه كافر استحلوا دمه وماله، وقد نشأ هذا الفكر المغلوط لديهم لفهمهم الخاطئ لنصوص الشرع والاكتفاء بمفهومها الظاهري، وعدم الرجوع لأهل العلم في إدراك حقائقها، فالجهل والبعد عن أهل العلم (أهل الذكر) من المختصين قاد كثيرًا من الفرق الضالة المتطرفة إلى الانحراف الفكري والوقوع في الضلال.

وهذه بعض النصوص الشرعية التي أخطئوا في تفسيرها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

ومن النصوص النبوية التي فهموها على غير مرادها أيضًا، قول النبي ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»[1]، وقوله ﷺ: «**إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ**»[2]،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية ولا يُكفَّر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، حديث رقم (٣٠). ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس، حديث رقم (١٦٦١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، حديث رقم (٨٢).

وقوله ﷺ: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»(١).

● والحق أنه ليس فيما سبق من نصوص قرآنية أو السنة المطهرة دليل صريح على كفر مرتكب الكبيرة، أو وجوب تخليده في النار، فغاية ما في الأمر أن ما ذكر من النصوص خاصٌّ بمن استحل شيئًا من الكبائر أو جحد أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة، كالصلاة والحج بعد استيفاء شروطهما؛ يعني أحل الحرام وحرَّم الحلال، وخرج عن هدْي ربه إلى هوى نفسه وتفكير عقله، وقدَّمه على هدْي ربه، فهو يخترع دينًا جديدًا، وحقيقة الدين ليس اختراعًا بشريًّا، وإنما الدين وحي من الله ﷻ، أما من آمن بالله وبهَدْي الله الخالق في الحلال والحرام، ثم غلبته نفسه ففعل كبيرة أو أكثر ولم يتب منها فهو مؤمن عاصٍ وليس بكافر، **فهناك فرق بين الإيمان، وهو عمل قلبي عقلي، وبين أعمال الجوارح.**

● إن وجود بعض المعاصي والكبائر في تصرفات الإنسان المسلم وأفعاله ـ كما جاء في الحديث ـ لا يقتضي ذلك

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، حديث رقم (٤٨). ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان قول النبي ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»، حديث رقم (٦٤).

تكفيره أو خروجه من الدين، وإلا حكم رسول الله ﷺ على أبي ذر بالكفر وطالبه بالعودة إلى الإسلام لمجرد أنه ضرب خادمه أو أساء إليه، وقد أكَّد ذلك البخاري في صحيحه؛ حيث بوَّب لهذا الحديث فقال: «باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك»، لقول النبي ﷺ: «**إِنَّكَ امرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّة**»، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

- وأما ترك الصلاة وقتال المسلم فلا يَكْفُر إلا من استحل فعلهما ولم ير في ذلك تهاونًا في حق الدين.

- ومما يوضح لنا أن المسلم لا يَكْفُر بالمعاصي والكبائر قول الله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]؛ فالله ﷻ يغفر الذنوب والمعاصي كلها مهما بلغت ومهما كانت، إلا أن يُشرك به كما قيدت آيتا النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

فعلى الرغم من الاقتتال الواقع بين الطائفتين لم يخرجهما الله تعالى عن الإيمان، بل جعلهما من المؤمنين.

كما أن رسول الله ﷺ لم يحكم على مرتكب الكبيرة بالكفر، بل اكتفى بإقامة الحد الشرعي عليه، كما في رجم الزناة.

• وحقيقة القول: أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر، ولا يُخلَّد في النار؛ لأن هناك أحاديث صحيحة صريحة تؤكد هذه الحقيقة، ومنها قول رسول الله ﷺ: «**يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ**»، ثُمَّ يَقُولُ الله تَعَالَى: «**أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ**»[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان في الأعمال، حديث رقم (٢٢).

وروى أنس عن النبي ﷺ قال: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ**»، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: «قَالَ أَبَانُ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، حَدَّثَنَا أَنَسٌ، عَنِ النبي ﷺ: «**مِنْ إِيمَانٍ**» مَكَانَ «**مِنْ خَيْرٍ**»[1]. وغيرها من الأحاديث التي تؤكد أن المسلم لا يُخلَّد في النار كما يرى الخوارج.

- **فائدة لغوية**

وأمَّا الأحاديث النبوية التي ورد فيها نفي الإيمان؛ مثل قوله ﷺ: «**وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ**» قِيلَ: «وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟» قَالَ: «**الذي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَه**»[2]، وقوله ﷺ: «**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الذي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ**»[3]،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: زيادة الإيمان ونقصانه، حديث رقم (٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: إثم من لا يأمن جاره بوائقه، حديث رقم (٦٠١٦).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ص٥٢، حديث رقم (١١٢)، وصححه الألباني في تعليقه على الأدب المفرد.

وقوله ﷺ: «**لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الخمر حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ**»(١). وقوله ﷺ: «**مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**»(٢)... إلخ - فهذا أسلوب لغوي لنفي كمال الإيمان وليس لنفي الإيمان نفسه، كما نقول في لغتنا العربية للتلميذ إذا لم يحصل على تسعين في المائة في التخرج، وفاته الامتياز ودخول الكلية التي يريدها.. نقول:

«ليس بتلميذ ولا ناجح من جاء بأقل من تسعين في المائة».

فالمراد هنا ليس نفي النجاح وإنما نفي كمال النجاح.. وهكذا، فإن نصوص القرآن نزلت بلسان عربي مبين، ولا يُقبْل أن يُفسَّر القرآن بغير اللسان العربى، فقد نصت الآيات على ذلك: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الحدود، باب: إثم الزناة، حديث رقم (٦٨١٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ: «**مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**»، حديث رقم (١٠١).

- **خلاصة القول**
- أن تطرُّف فكر الخوارج أساء إليهم كثيرًا مما جعلهم يَعْجِزون عن تحقيق مبادئهم وأفكارهم، فبسبب تكفيرهم مرتكب الكبيرة انقسموا على أنفسهم أشد الانقسام في كثير من القضايا، واعتبرت كل فرقة ما عداها من الفرق خارجة عن الملة، فاستباحت دماءهم واستحلت أموالهم.
- وقد أكد العلماء سلفًا وخلفًا أن إدراك الخوارج للنصوص الدينية كان إدراكًا سطحيًّا إلى حد كبير.
- وأَمرٌ في غاية الأهمية والخطورة بشأن الخوارج؛ حيث يقع الشباب المعاصر المخلص لدينه والمحب لأمته ـ عن طريق هذا الأمر ـ في فكر الخوارج المعاصرين ويستجيب لهم، وهو أن الخوارج لا يُتهمون في إخلاصهم للدين، وإنما المشكلة في فهمهم الخاطئ وتشدّدهم في الدين وغُلُوّهم فيه، مما جعلهم يحكمون على مخالفيهم أحكامًا مخالفة لحقيقة الدين، منها: الكفر والشرك والتفسيق والتبديع، حيث إنهم لم يفهموا أن الكافر هو من فقد

جُزْأَي الإيمان معًا، وهما: الاعتقاد والعمل، ولم يُفرّقوا بين الإيمان والعمل الصالح، وأن من يرتكب أمرًا مخالفًا لأوامر الدين فقد هدم أحد جزْأَي الإيمان، فهو عاصٍ ولا يصح أن يُسمَّى كافرًا، وإنما هو مؤمن ناقص الإيمان.

- وهكذا يظهر بوضوح أن الغلو في فهم الدين لدى الخوارج جعلهم يُخطئون الطريق الصحيح؛ فضَلُّوا عن معرفة الحق، وتلك حالة متكررة، تحدث لكل فرقة تحيد عن الصراط المستقيم في أي مكان وزمان بسبب بُعْدها عن العلم وأهله.

- وقد سار هذا الفكر (فكر الخوارج) يضعف حينًا إذا اتسمت الأمة بالقوة العلمية، ويقوى حينًا في لحظات ضعف الأمة وانزوائها العلمي ووجود فراغ كبير في الساحة لم يَمْلَأْهُ علماء الأمة بفقه الوسطية وفقه التيسير، الأمر الذي أتاح لفكر الخوارج المتشدد أن يُعاود الظهور ثانية، ولا شك أن الاختراق الثقافي والفكري ضد الأمة استطاع أن يستخدم هذا الفكر لتشويه الإسلام بوصفه بالغلو والتشدد، وأنه لا يصلح للحياة المعاصرة، ولا لبناء حضارة علمية، واستطاع أن يجعل من داعش نموذجًا فعليًّا عمليًّا لتشويه الإسلام والمسلمين.

- **من هنا تأتي ضرورة نهضة العلماء الربّانيين الذين يحملون راية الوسطية وفقه التيسير لبيان الأخطاء الفكرية التي تقع فيها بعض الجماعات، فالفكر لا يُعالَج إلا بالفكر.**

٢- شبهة تكفير الحاكم

يستند المُكفِّرون للحاكم لآية ورد فيها التصريح بأن الحكم بغير ما أنزل الله كفر: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وجمهور العلماء على أن الآية خاصة بالمُنْكِر الجاحد لحكم الله، الذى يرى غيره أفضل منه وأتم وأشمل، أما من يحكم بغير ما أنزل الله لدواعي تخرج عن إرادته، حيث إنه لا تستطيع دولة أن تنعزل عن النظام العالمي؛ ولا قوة للدولة الآن حتى تفرض النظام الذي تريده، فلا تنطبق عليه الآية.

وهنا نُفرِّق بين كفر الاعتقاد، وكفر العمل، فكفر العمل (مع استقرار الاعتقاد والإيمان بحكم الله في القلب) لا يُخْرِج من المِلَّة، ولا يُحْكَم عليه بالكفر.

- والآية لا تختص بالحاكم وحده، بل هي عامة في كل مسؤول وراع بداية من مستوى الأسرة، والمؤسسات إلى أن نصل إلى مستوى الدولة.

- والحكم بما أنزل الله لا ينحصر في الحدود، بل يشمل إقامة هدْي الله في الأخلاق والأمانة والعدل .. إلخ.
- وأود التأكيد أن العلماء لا ينكرون هذه الآية كما يزعم المُكفِّرون وإنما ينكرون الفهم الخاطيء للمكفرين.

٣- شبهة تكفير الأتباع المحكومين إذا رضوا بالحكم بغير ما أنزل الله

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ ﴾ [التوبة: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

- وقالوا: فالاتباع عمل، والنسيء عمل، وحُكِمَ على فاعل ذلك بالكفر في الآية الأولى والثانية، والتولّي وعدم الاتباع حُكِمَ عليه بالكفر فى الآية الثالثة.
- والجواب عن ذلك: أن آية الأحبار المقصود بها إعطاء الأحبار سلطة الألوهية في التحليل والتحريم فيجعلونهم مكان الإله.

وآية النسيء: أنهم أعطوا لأنفسهم سلطة التحليل والتحريم مكان الإله .. بدليل قوله تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ [التوبة: ٣٧]، وهذا من التلاعب بالشرع، وأما آية اتباع الرسول أوالتولي عن اتباعه فكان هذا بشأن وفد نصارى نجران، الذين يجدون رسول الله في كتابهم ولا يؤمنون به، فخاطبهم القرآن ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: على كفرهم ولم يستجيبوا ولم يؤمنوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

فلا حَقَّ لمن زعم من التكفيريين في تكفير من أطاع الحاكم المسلم الذي يحكم بغير ما أنزل الله.

والقول الفصل في هذه المسألة في حديث رسول الله ﷺ «عن عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»[1].

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي حديث رقم (١)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنية» حديث رقم (١٩٠٧).

وقوله ﷺ: «عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، زَوْجِ النبي ﷺ، عَنِ النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**»، قَالُوا: «يَا رَسُولَ الله، أَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟» قَالَ: «**لَا، مَا صَلَّوْا**»[1].

وليس بعد قول النبي قول، وليس بعد بيانه ﷺ بيانٌ، وليس بعد حكمه حكم.

ولا يخفي على عاقل أن التشريعات التي تتخذها الدول في أمور المباحات والمصالح كالمرور في الشوارع، والصحة، والصناعة، والتعليم ... إلخ. فيها سعة وفسحة.

● **لطيفة**

القرآن الكريم أتى بالقيم الجامعة مثل العدل والأمانة والأمر بالشورى ... إلخ، وترك الوسائل والآليات بما يتناسب مع كل زمن وظروف كل مكان، وهذا من عظمة القرآن وسر من أسرار خلوده وصلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب: وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع ... حديث رقم (١٨٥٤ / ٦٣) من حديث أم سلمى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

أيضًا الأمور التي ورد فيها أكثر من اجتهاد من العلماء، فإن القاعدة الشرعية: «المُخْتَلَف فيه لا إنكار فيه» فالنبي ﷺ لم ينكر على الصحابة حين اختلفوا في فهم قوله ﷺ يوم الأحزاب: «**لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**» فَأَدْرَكَ بَعْضَهُمُ العَصْرُ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: «لاَ نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا»، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «بَلْ نُصَلِّي، لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ»، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ»[1].

٤- شبهة تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار كفر

لما كَفَّر التكفيريون الحاكم والأتباع، حكموا على المجتمع بالكفر (دار كفر) ولابد من الهجرة منه إلى دار إسلام، مما دفعهم إلى الصعود للجبال والكهوف.

وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا على أن دار الإسلام هي التي يملك المسلمون فيها السيادة، وتظهر فيها أحكام الإسلام وشعائره.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجمعة، باب: صلاة الطالب والمطلوب، حديث رقم (٩٤٦).

وفي الحياة المعاصرة تغير الواقع الدولي وأصبحت الدول لا تُقام على أساس ديني وأصبح العالم يأخذ بمبدأ المواطنة حيث لا يميز بين فرد وآخر على أساس دينه أو ماله ... إلخ؛ وإنما الكل سواء أمام الحقوق والواجبات (المواطنة).

وتؤكد هذا المعنى العودة إلى وثيقة المدينة المنورة التي تؤسس للعلاقة مع الآخر (غير المسلم) وتجعله جزءًا من نسيج الأمة: «له ما لنا وعليه ما علينا».

وعلاقة النبي ﷺ في التعاملات الاجتماعية والمالية مع اليهود في المدينة يمكن أن تكون منطلقًا للتعامل مع الدول التي لا تدين بالإسلام[1].

وهنالك وجه محمود لوجود المسلمين في الدول غير الإسلامية، هو أنهم يصبحون مشاعل للدعوة ونشر الدين في هذه البلاد بحسن العشرة وطيب المعاملة، وهل انتشر الإسلام في إفريقيا وآسيا إلا من خلال المسلمين الذين أقاموا هناك، وهكذا في أوروبا وأمريكا، وهؤلاء لم يكونوا دعاة متخصصين

(١) القرآن وصحوة العقل، د. محمد محمد داود، دار المنار، ص ١٤ - ٢٠.

وإنما كانوا تجارًا أمناء صادقين؛ فبأخلاقهم وحسن تعاملهم انتشر الإسلام ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

والذي يُفْهَم من كلام الفقهاء في القديم عن دار الإسلام ودار الحرب أن الدولة التي تكون في عداء وحرب مع دولة الإسلام ولا يأمن الإنسان فيها على دينه ونفسه وماله، وحياته مهددة؛ فالأولى به أن ينجو بنفسه من المخاطر ويترك هذه الدولة إلى دار يأمن فيها على نفسه وحياته ودينه.

المبحث الثاني
في مواجهة العنف والإرهاب

يعاني المجتمع المعاصر من انتشار ظاهرة الغلو في الدين وما تؤدي إليه من عنف وإرهاب.

والتناول العلمي للظاهرة يبدأ بتحديد المقصود بالمصطلحات والمفاهيم الخاصة بها، والوقوف على الأسباب والدوافع، ثم بيان آثارها ونتائجها على الفرد والمجتمع، بالإضافة إلى وصف العلاج الناجع للقضاء على تلك الظاهرة، مستهدين في ذلك كله بهدي القرآن العظيم وسنة النبي الأمين سيدنا محمد ﷺ.

تحديد المصطلحات والمفاهيم

- **الغلو في اللغة**: هو الإفراط في الشَّيْء ومجاوزة الحدّ فِيهِ، من قولهم: غلا الرجل بالسهم، إذا رفع يده يريد به أقصى الغاية[1].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ مادة (غلو).

- **الغلو في الاصطلاح**: جاء موافقًا للمعنى اللغوي للكلمة، ومنه في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

أي: يا أهل الكتاب لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ولا تُطْرُوا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية، كما صنعتم في المسيح وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهًا من دون الله[(١)].

ومنه في الحديث النبوي، قال ﷺ: «**إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**»[(٢)].

- **التطرُّف لغةً**: أصل التطرُّف هو الوقوف في الطرف بعيدًا عن الوسط؛ أي: المُجافاة والابتعاد، وقد اتفقت كتب اللغة على قولهم: (تطرف الشيء صار طرفًا)[(٣)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ، ٣/ ١٤٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (١٨٥١)، وابن ماجه، كتاب: المناسك، باب: قَدْر حصى الرمي، حديث رقم (٣٠٢٩)، وصححه الألباني في صحيح السنن.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ٩/ ١٤٩، مادة (طرف)، وانظر: تاج العروس، الزبيدي، ٢٤/ ٨٧، مادة (طرف)، ولسان العرب، ابن منظور، ٩/ ٢١٣، مادة (طرف).

٢٥- والتطرُّف اصطلاحًا يتصل اتصالًا وثيقًا بالمعنى اللغوي، حيث يأتي بمعنى البعد عن الوسطية إما إلى الإفراط أو إلى التفريط.

- **العنف لغةً**: قال ابن فارس: العين والنون والفاء أصلٌ صحيح يدلُّ على خلاف الرِّفق. وقال الخليل: العُنْف: ضدُّ الرِّفق. تقول عَنُفَ يعنُف عُنْفًا فهو عنيف، إذا لم يَرفُق في أمره. ومنه التعنيف: وهو التَّشديد في اللوم[(١)].

- **والعنف في الاصطلاح** سلوك عدواني يستهدف إلحاق الأذى (المعنوي والمادي) بالأشخاص أو الممتلكات[(٢)].

- **الإرهاب لغة**: مِن أرهبَ الرجلَ ورَهَّبَه: فَزَّعه[(٣)]، والإِرْهَابُ: الإِزعاجُ والإِخَافَةُ[(٤)].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ١٥٨، مادة (عنف).

(٢) رؤية نظرية حول العنف السياسي، د/ آدم قبي، مجلة الباحث (دورية علمية محكمة - كلية الحقوق والعلوم الاقتصادية، جامعة ورقلة، الجزائر) عدد١، ٢٠٠٢م، صـ١٠٢.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ٤/ ٣١٠، مادة (رهب).

(٤) تاج العروس، الزبيدي، ٢/ ٥٤١، مادة (رهب).

وقد جاء الحديث عن الإرهاب في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والإرهاب في الآية الكريمة فيه تخصيص للمعنى، فهو تخويف للعدو حتى لا يطمع فينا (يعني يكون للمسلمين قوة ردع) فهو إذن لمنع العدوان وليس للعدوان. والإعداد للقوة الذي أمرت به الآية هو: بناء القدرة للدولة، حتى يعلم خصمك القوة التي تمتلكها فلا يجترئ عليك، ويتحقق بهذا ما نسميه بلغة العصر «التوازن السلمي» والقوة الآن أصبحت لا تقتصر على القوة الصلبة العسكرية فقط، بل اتسع معناها لتشمل عناصر كثيرة، منها: العلم والاقتصاد والإعلام والمعلومات.. وغير ذلك فيما يُسمَّى بالقوة الناعمة، وصار الخوف من رد الفعل أحد الأسباب القوية المانعة للحرب، وكل دولة تخشى مما تخفيه أو تظهره الدولة الأخرى. وهكذا صار الإعداد للحرب ينفي قيام الحرب[1].

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولى الشعراوي، (بتصرف) مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م، ٨/ ٤٧٧٩.

وقد تطوَّرت دلالة كلمة الإرهاب في العصر الحديث حيث تم تخصيص معنى الإرهاب وحصره ضد المدنيين وليس ضد المعتدين كما في الدلالة القرآنية للكلمة، وأصبحت تُسْتَعْمَل بمعنى استخدام العنف أو التهديد به لإثارة الخوف والذعر بين المدنيين، من خلال قتل الناس أو اختطافهم، أو القيام بتفجير القنابل، واختطاف الطائرات، وإشعال النيران، وارتكاب غير ذلك من الجرائم الخطيرة، والإرهاب ضد المدنيين حرام في الإسلام بآية حد الحرابة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

- **ومما لا شك فيه أن هناك اتصالًا واضحًا بين مصطلحات: (العنف والتعصب والتطرف والإرهاب)، فإن الغلو الذي يعني مجاوزة الحد يؤدي إلى التعصب؛ لأن الإنسان إذا غلا في الحب أو البغض فإنه يتعصب للشيء الذي يحبه أو الذي يبغضه، وينغلق تفكيره على ذلك الشيء، فلا**

يقبل بخلاف ما يرى، وهذا هو معنى التطرف الذي يأخذ الإنسان المتعصب إلى المبالغة والتشدد مما يُبْعِده عن سماحة الوسطية، وقد لا يكتفي هذا الإنسان المتطرف بذلك، وإنما قد يلجأ إلى فرض آرائه المتطرفة على الناس بالقوة، فيلجأ في سبيل تحقيق ذلك إلى العنف والإرهاب، من قتلٍ بالقوة وتدمير وإثارة للفوضى، ويصل بذلك إلى قمة الغلو في الدين.

أين نشأ الإرهاب ومتى؟

يرى المؤرخون والباحثون أن الإرهاب قديم قِدم العلاقات الإنسانية، فهو يرتبط بوجود علاقات اجتماعية بين بني البشر، ويرتبط بوجود أى نوع من الصراع بين الحق والباطل والخير والشر.

وهناك محاولات مستميتة في العصر الحاضر تحاول لصق الإرهاب بالإسلام زورًا وبهتانًا، بينما وقائع التاريخ تشير إلى أن العنف والإرهاب على اختلاف صوره وأشكاله ظهر عند غير المسلمين:

• فأول منظمة إرهابية في تاريخ البشرية قد ظهرت في نهاية القرن الأول الميلادي، وقد تشكَّلت على يد بعض المتطرفين اليهود الذين وفدوا إلى فلسطين في ذلك الزمان لإعادة بناء الهيكل المزعوم.

• وفي العصر الحديث ظهر الإرهاب إلى حيز الوجود أثناء الثورة الفرنسية حين تبنَّى بعض الثوريين الذين استولوا على فرنسا سياسة العنف ضد أعدائهم، وقد عُرِفَت فترة حكمهم باسم عهد الإرهاب.

• كذلك فإن أوروبا شهدت في النصف الأول من القرن الماضي أبشع صور الإرهاب والعنف، وذلك في الحربين العالميتين اللتين راح ضحيتهما أكثر من ستين مليون شخص من البشر، وما فعلته أمريكا باليابان ليس بخافٍ على أحد.

• والجماعات والحركات الإرهابية المنظمة بدأت في الظهور في نهايات القرن الثامن عشر الميلادي، حيث ظهرت جماعات مثل:

- **كو كلوكس كلان Ku Klux Klan**، وهي جماعة أمريكية استخدمت العنف لإرهاب المواطنين السود والمتعاطفين معهم.

- **جماعة الألوية الحمراء في إيطاليا، وزمرة الجيش الأحمر في ألمانيا**، وكلتاهما في ستينيات القرن العشرين، وهي جماعات كانت تقصد إلى تخريب الأنظمة السياسية والاقتصادية في بلادها.

وبهذه اللمحة التاريخية يتبين لنا:

- أن ظهور مصطلح الإرهاب كان في نهايات القرن الثامن عشر الميلادي، بينما ظهور الإسلام كان قبل ذلك بأكثر من اثنى عشر قرنًا.
- أن أول من أُطْلِقَ عليهم مصطلح الإرهاب تاريخيًّا كانوا في أوروبا، فلا هم عرب ولا هم مسلمون.
- أن تاريخ هذا المصطلح وتدرجاته كلها تسجل أن الإرهابيين ليسوا عربًا، وليسوا مسلمين.
- كما أن الجماعات التي ظهرت حديثًا تمارس العنف والإرهاب وتنتسب إلى الإسلام، هي صناعة غربية. فمن صنع القاعدة؟ أليست أمريكا لمواجهة الاتحاد السوفيتي؟! ومن صنع داعش؟ أليست أمريكا لاستخدام داعش في تفكيك الدول العربية والإسلامية وتفتيتها، وتشويه

المسلمين والإسلام، من أجل مشروعهم الشرق أوسطي الجديد؟!

ومن قاد وصنع ونادى بالفوضى الخلاقة (الهدامة)؟ أليست أمريكا؟!!

إنها صناعة الزيف، والجيل الرابع من الحروب.

فالحقيقة التي يقرها الباحثون المنصفون في الأديان المختلفة: أن الإرهاب لا دين له ولا وطن له وأنه صناعة سياسية لإدارة مصالح من صنعوه.

ونصل إلى السؤال المستحق في هذا السياق:

- إذن فكيف ظهرت الجماعات الدينية التي تمارس الإرهاب؟! وما أسباب ظهور الجماعات الإرهابية المتطرفة؟

إن التحليل العلمي المنصف يؤكد أن الإرهاب والعنف من وراء ظهوره أسباب متعددة ومتنوعة: فكرية ونفسية وسياسية واجتماعية، ودوافع اقتصادية وتربوية، إنها ظاهرة معقدة ومتشابكة، وينبغي ألّا ننظر إليها من جانب واحد، ولا نقف عند سبب واحد، بل ينبغي دراسة هذه الأسباب مجتمعة، ويتطلب ذلك دراسات عميقة للوقوف على الحقائق التي وراء الإرهاب.

والدراسات الاجتماعية والنفسية والسياسية المعاصرة تحدد جملة من الدوافع، نوجزها في الأسباب الآتية:

(١) الأسباب الفكرية:

إن التكوين العقلي للإنسان يلعب دورًا أساسيًّا في تشكيل فكره، فالإنسان منذ نشأته يتلقى معارفه وأفكاره من أسرته وبيئته المحيطة به ومن مدرسته أو جامعته، ومن علمائه ومشايخه، أو من الإعلام المحيط به على اختلاف صوره ووسائله، فإذا كانت تلك البيئة ملوثة بأفكار سلبية، نشأ هذا الإنسان على ذلك الفكر وتشبع به.

وما من شك في أن الاختراق الثقافي من جانب، والجمود الفكري الذي تعاني منه الأمة في حالتها المعاصرة من جانب آخر؛ لهو من أكبر ما يغذي الفكر المتطرف، ويمكن إجمال الأسباب الفكرية في المحاور الآتية:

أ- الاختراق الثقافي والفوضي الخلاقة (الهدامة)

- حيث يتعرض المجتمع المسلم لحرب جديدة.. أخطر من كل الحروب العسكرية، إنها حرب الأفكار والثقافات، وما يصاحبها من حروب نفسية من نشر

الشائعات الكاذبة المغرضة، ومحاولة تشويه الرموز الفكرية والعلمية، وهدم الأسوة والقدوة بتشويه القادة، وكل ذلك يهدف إلى تحويل المجتمع المسلم إلى نسيج مهلهل.. مستسلم، وإن كانت الحروب العسكرية التي يقوم بها الغرب ضد العرب والمسلمين تدفع المجتمعات إلى الفقر بتدميرها، ويكون الفقر مقدمة تمهد لفرض السياسات والأفكار بعد ذلك... فإن الحروب الفكرية الممنهجة هي آلية تدمير الإنسان معنويًّا وصناعة الهزائم النفسية.

- ليس عبثًا ولا سدى أن يُدْعَم انتشار الأفلام الجنسية والمخدرات في بلاد المسلمين.. ففي آخر الإحصائيات في ٢٠١٣م تم رصد أكثر من (٢) مليوني موقع لتداول المسائل الجنسية وإشاعتها، وعشرات القنوات ومئات المواقع التي تشكك في القرآن ونبي القرآن وسنته.. وفي كل ما هو إسلامي... إنهم يخترقون القلب بالشهوات والعقل بالشبهات.
- ليس عبثًا إعلان وزيرة الخارجية الأمريكية عن مشروعهم «الفوضى الخلاقة»... عفوًا «الفوضى

الهدامة»... واستخدموا كل أنواع الحروب لتحقيقها، ثم أرسلوا موجة عاتية من الحروب الفكرية .. يقابل كل هذه الحروب والهجمات الخارجية واقع داخلي مرير مليء بالسلبيات التي ساعدت على ظهور الإرهاب والتكفير، ومن أهم هذه السلبيات:

- الطرح المُشوَّه للدين... بين الإفراط والغلو والتشدد... والتفريط والتساهل، وتحول المرجعية في الدين إلى الشهرة بدلًا من التخصُّص والكفاءة، إذ يتصدر المشهد الدعويّ الآن في الغالب أصحاب الثقة والحظوة، وليس أصحاب الكفاءة والخبرة، وشارك الإعلام في ذلك من خلال تقديمه من لا يحق له أن يتصدر العلم والفتوى، وظهر في بعض القنوات الخاصة الاعتبار التجاري الذي يهدف إلى الربح على حساب الرسالة الإعلامية... وظهر اتجاه قوي في هذه القنوات... ادفع وتكلم (ادفع وقوووول)، وحدث خلط بين القيمة والشهرة.

- الانفصام في المجتمع بين الشعارات الدينية البرّاقة... والواقع المؤلم الذي نعيشه جميعًا ألمًا ومعاناة...

فالمجتمعات العربية على قمة قوائم الفساد في العالم... وأصبح الفساد قانونيًّا (يعني يتم بإساءة استخدام القانون لصالح الفساد)... حتى صار في كثير من مؤسسات المجتمع... اتجاه (ادفع وخالف).

- افتقاد الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة في كثير من الكبار (بالمعنى الاجتماعي) والوجهاء والمسؤولين والعلماء، وطغت النرجسية والأنانية والطمع، ونسي هؤلاء رسالتهم ومسؤوليتهم... بعيدًا عن جلال الإيمان وربّانية المؤمن.

- السقوط العلمي للمجتمعات الإسلامية والعربية أمام الحضارة الغربية، فليس للمسلمين حضور على الخريطة العلمية العالمية، ولا إسهام في صنع الحضارة، وإنما هم في موقع الاستهلاك الحضاري... ومن هنا شاعت أكذوبة «أن الاسلام ضد العلم» و«أن الإسلام سبب التأخر»... إلخ، وترتب على ذلك سحب الصراع الذي كان بين الكنيسة والعلم في القرن السابع عشر في أوربا على الإسلام.

- وفي إطار هذه الفتن والثقافات المضادة الوافدة... اتسعت مساحة الأسئلة وتجاوزت السؤال: ماذا أفعل؟ لتصل إلى السؤال: لماذا أفعل؟!!! وما كان من المُسلَّمات في الماضي (المُقدَّسات وأمور الغيب) أصبح الآن موضع نقاش... ويستلزم هذا أن يتسع الصدر لكل الأسئلة... وأن نبين بالعلم والعقل الإجابات المقنعة عن هذه الأسئلة الجديدة.

- ولا يخفي على وعْيِ عاقل بصير أن التقنية الحديثة يستخدمها الآخر في إتقان صناعة الزيف في حياتنا، وتسهم عمليات التزوير اللغوي في ذلك... فالتحرُّش الجنسي تحرُّر جنسي وحرية شخصية!!!، ولم تعد العذرية مهمة للبنات!!!، والكفر والإلحاد حرية!!!، والأجساد العارية جمال إنساني!!!، والجرأة على تأويل نصوص القرآن بغير علم يحدث تحت عنوان: الفكر حرية!!! وبحجة مواجهة التشدد والتطرف يُباح الانحلال والتسيُّب!!!، ونحن الشرق الأوسط ولسنا الشرق العربي أو الإسلامي!!!

ب- عدم الوعي بفقه مقاصد الشريعة بشكل عام:

فمن المعلوم أن الشريعة قد جاءت بمقاصد كلية خمسة، وهي: حفظ الدين والعقل والنفس والعِرض والمال، وهذه المقاصد لا يمكن تحقيقها في ظل الفوضى واضطراب الأوضاع وانعدام الأمن.

وعدم الوعي بفقه مقاصد الشريعة يؤدي إلى الوقوع في التشدد والغلو، ومن الأمثلة على ذلك ما روي عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلًا مِنَّا حَجَرٌ فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ احْتَلَمَ فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ فَقَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النبي ﷺ أُخْبِرَ بِذَلِكَ فَقَالَ: **«قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِي السُّؤَالُ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ أَوْ يَعْصِبَ عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً، ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ»**[1].

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الطهارة، باب: في المجروح يتيمم، حديث رقم: (٣٣٦)، وحسنه الألباني دون قوله: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ».

جـ- عدم الوعي بمقاصد الجهاد وحقيقة معناه:

إن الجهاد لم يُشرع لإشباع الرغبات والتشفي وتحقيق الأهواء الشخصية وسفك الدماء بالباطل، وإنما لا بد أن يكون مرتبطًا بما أمر الله وفي حدود شرائعه، فلا يكون إلا لحفظ الدين أو النفس أو العقل أو المال أو العِرْض، أو دفع الظلم والعدوان، أو لحفظ الأمن العام وتحقيق السكينة.

ومن الأخطاء الفادحة قصر الجهاد على معنى القتال فقط، والحق الذي عليه علماء الأمة سلفًا وخلفًا أن الجهاد يشمل مجالات الحياة كلها لإقامة هدي الله فيها، جهاد النفس، جهاد الأسرة، الجهاد المدني بالمجتمع للإصلاح والتطوير والتجديد والتحديث ... إلخ.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والقتال أحد وجوه الجهاد التي تكون بتنظيم من ولي الأمر، وله شروطه وضوابطه.

وحُسْن النيَّة ليس كافيًا عند بعض الشباب الذي يعطي لنفسه سلطة ولي الأمر، وسلطة أهل العلم، فيُشرِّع لنفسه وينفذ .. مما يحيل المجتمع إلى فوضى عارمة.

د - الفهم الخاطئ لنصوص الكتاب والسنة:

والفهم الخاطئ يكون نابعًا - في الأعم الأغلب - عن جهل، فيسير الإنسان على غير هُدَى، وقد يكون نابعًا عن اتباع للهوى، حيث تراه يغالط ويجادل ويلوي عنق النصوص لإخضاعها لآرائه وأهوائه، وتسمع التبرير والتسويغ لأخطاء ينكرها الدين والعقل!!! وصدق الله العظيم ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

ومن الشواهد الحية على ذلك: الخطأ في فهم السمع والطاعة، حيث يحولها بعضهم من قيمة إسلامية في الاتباع لدين الله تعالى - دعا إليها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١] - إلى اتباع لجماعته وأميره وهواه.

والسؤال المستحق هنا: السمع لِـمَن؟ والطاعة لِـمَن ؟

- إنها لله تعالى، والسمع لغير الله مشروط بأن يكون في حدود طاعة الله تعالى، فإن خرج عن طاعة الله، فأمر

بمُحرَّم فلا طاعة له، وفي الحديث: «**لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**»[١].

- وأمرنا الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى ونهانا عن التعاون على الإثم والعدوان، فلو دعاني إنسان لتعمير طريق أو فعل خير يجب أن أسارع في التعاون معه، بينما إذا دعاني إلى قطع طريق أو إحراق مؤسسة فلا أستجيب له؛ عملًا بقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

أيضًا الذين يستحلون السب والشتم، متى كان السب والشتم دينًا؟!! وهذا منهي عنه في القرآن، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]، ونهى رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلاَ اللَّعَّانِ وَلاَ الفَاحِشِ وَلاَ البَذِيءِ**»[٢]. واستحلال الكذب والشائعات

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (١٩٨٢٤) والمعجم الكبير، للطبراني، برقم (٣٨١)، واللفظ له، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، برقم (١٧٩).

(٢) رواه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب: ما جاء في اللعنة، برقم (١٩٧٧)، وأحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبدالله بن مسعود ﷺ، برقم (٣٩٤٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٢٠).

بتبريرات وتسويغات لا يقرُّها القرآن ولا السنة أمرٌ ينبغي على من وقع فيه أن يراجع نفسه، وإن من القواعد الأخلاقية في الإسلام أن الغايات النبيلة الشريفة لابد لها من وسائل نبيلة شريفة، وليس في الإسلام مبدأ: «الغاية تبرر الوسيلة».

- إنه من الخطأ الفادح أن يسقط الإنسان المسلم المؤمن بقرآن ربه وسنة نبيه ﷺ في تقديم رأيه أو رأي جماعته أو إمامه على آيات القرآن الكريم وسنة رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

والإفراط والمغالاة في تزكية النفس في مقابل المغالاة في تقزيم الآخَر واحتقاره وقتله بكل أنواع الاغتيالات المعنوية .. كل ذلك مخالف لهدي القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]، فإن الحيّ لا تُؤْمَن عليه الفتنة.

ورَحِمَ الله السلف الصالح من الأئمة الذين تلقت الأمة علمهم وفهمهم للدين بالقبول طوال القرون السابقة، وهم أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل، فقد وردت

عنهم هذه المقولة الذهبية الإيمانية: «رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب».

وهذا عين التفكير العلمي الإيماني الذي ينتمي بكل سبيل إلى القرآن والسنة.

- والإسلام دين الله الخاتم وشريعة الله الخالدة أعظم من أن يُحْصَر في رجل أو رجلين أو في جماعة. فالمرجعية المعصومة والمُنزَّهة عن كل خطأ وانحراف هي مرجعية القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. والسلف الصالح - رضوان الله عليهم - هو الذي أرسى قاعدة الاتباع الواعي: «الرجال يُعرفون بالحق ولا يُعرف الحق بالرجال».
- والدعوة إلى الله تعالى لا يمكن تحزيبها أو شخصنتها بحالٍ من الأحوال.
- والداعية والعالِم يدعو إلى الله تعالى، وليس إلى حزبه أو إلى شخصه للشهرة والصيت الذائع، الداعية الحق يحاول الإصلاح في القاعدة العريضة من الناس، في إيمانهم وأخلاقهم فيتم التغيير الحقيقي في المجتمع ويتحوَّل

الشر إلى خير بحب واقتناع دون إكراه ولا ضغوط؛ لأن الإكراه على الخُلق لا ينتج المجتمع الأخلاقي، والإكراه على الإيمان لا ينتج المجتمع المؤمن، وإنما خطاب العقل والإقناع، والأسوة والقدوة.

- **قيمة الاستقرار:**

هذه حقيقة تاريخية فالناظر إلى التاريخ البشري يرى أن الإنسان بداية من عصر الصيد لمّا عرف الحيوانات الأليفة والمستأنسة تحوَّل في سلم الحضارة من الصيد إلى الرعي، فلمّا استقر حول الأنهار والمياه كان عصر الزراعة ..، ثم جاءت عصور التقدُّم العلمي ... إلى أن وصلت البشرية إلى هذا التقدم العلمي الرائع.

إن قيمة الاستقرار تأتي أهميتها بوصفها بيئة للإنجاز، ولولاها ما كانت حضارة ولا كان تقدم، لذلك تُقر الفطرة والتاريخ والأديان قيمة الاستقرار؛ ومن هنا تأتي القاعدة الذهبية (**الإصلاح في إطار الاستقرار**)، إن الإصلاح مطلب متجدد في حياة الإنسان، ولكن لا يكون إصلاح إلا في إطار الاستقرار، فإن الفوضى لا تلد ولا تنتج إلا العنف والخراب والمزيد من الفساد.

إن الداعية الربّاني الفَطِن والعالِم الحق هو الذى ينشد الإصلاح في إطار الاستقرار، وبصيرة المُصْلِح الربّاني في تقدير العواقب: هل أقمت دينًا؟ هل أصلحت دنيا؟ أو أحدثت فتنة؟ ولا يُسقط الآيات التي في حق الكافرين على خصومه من المسلمين، فهذا خطأ فادح.

هـ- إعمال المفاهيم الموروثة أو الثقافات المضادة دون فحص أو تمحيص:

وإعمال تلك المفاهيم الموروثة أو الثقافات المضادة من خلال الغزو الفكري دون تدقيق أو نظر، قد يكون نابعًا عن الكسل أو الجهل أو الهوى أو اتباع المغلوب للغالب، أو التربية والتنشئة الخاطئة، أو المناهج التعليمية القاصرة، وقد يكون سببه التعصب والتشدد من المتصدرين للتوجيه والإرشاد، فيتلقى الإنسان منذ صغره تلك المفاهيم المشوَّهة من البيت أو المدرسة أو الجامعة أو الإعلام، أو شبكة المعلومات أو غير ذلك من المصادر المتنوعة، مما يؤدي إلى مزيد من التخلف والانغلاق الفكري والتعصب، وإلى تشويه صورة الإسلام، وضياع الـهُوِيَّة الإسلامية، ومواقع التواصل الاجتماعي خير شاهد على ذلك.

و- إهمال فقه الواقع

فقه الواقع بوَجْهٍ عام: هو علم يبحث في فقه الأحوال المعاصرة، من العوامل المؤثرة في المجتمعات، والقوى المهيمنة على الدول، والأفكار الموجهة لزعزعة العقيدة، والسبل المشروعة لحماية الأمة ورقيها في الحاضر والمستقبل.

فمعرفة الواقع للوصول به إلى حكم الشرع واجب مهم من الواجبات التي يجب أن يقوم بها طائفة مختصة من علماء المسلمين، كأي علم من العلوم الشرعية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو العسكرية، أو أي علم ينفع الأمة الإسلامية ويُقرِّبها من طريق العودة إلى عزها ومجدها، وعدم اعتبار فقه الواقع جعل بعض الشباب لا يفصل بين زمن النبي ﷺ وهدي النبي ﷺ، فراحوا يعيشون زمنه، بدلًا من أن يعيشوا هديه وسنته.

ز- إهمال فقه الأولويات

الأعمال الصالحة تتفاوت في المنازل والدرجات.. قال النبي ﷺ: «**الإيمان بِضْعٌ وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان**»[1].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري فى صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: أمور الإيمان، حديث رقم (٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان، حديث رقم (٣٥).

وكان الصحابة ﷺ حريصين الحرص كله على معرفة أفضل الأعمال عند الله تعالى، وعلى معرفة أحب الأعمال عنده سبحانه؛ وذلك لأن أحب الأعمال وأفضلها أرجى للقبول عنده؛ ولذلك كثرت أسئلتهم عن أفضل الأعمال وأحبها، وهذا الفقه مهم في تحديد واجب الوقت وعدم الانشغال بتوافه الأمور وإهمال الأمور المهمة، وكم من شاب هدم فرائض وارتكب مُحَرَّمات من أجل إقامة سنة.

ومن يتتبع ما جاء في القرآن والسنة في هذا المعنى يرَى أن الشرع وضع لنا جملة من المعايير؛ لبيان الأفضل والأَوْلى والأحب إلى الله تعالى: فصلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، والفرائض مُقدَّمة على النوافل.

وهذا عبد الله بن المبارك من علماء الأمة الذين فقهوا الأولويات، لما خرج في قافلة للحج، ومَرَّ ببلد، وماتت دجاجة من الطيور التي مع القافلة، أَمَر عبد الله بن المبارك وكيلَه أن يلقي بها في مكان يلقي الناس فيه فضلاتهم على مقربة من طريق القافلة، وكانت المفاجأة إذ أقبلت جارية

تأخذ هذه الدجاجة الميتة، وتسرع بها إلى دارها القريبة، فتحرَّك قلب عبد الله بن المبارك، وأحسّ أن ضائقة وراء أمر الجارية، فذهب إليها وسألها، فأخبرته بأنها وإخوتها قد حلت لهم الميتة منذ ثلاثة أيام؛ لوقوعهم في الاضطرار، فليس عندهم طعام ولا مال، فقد جاء لصوص فقتلوا أباهم وأخذوا ماله، فتأكد عبد الله بن المبارك من ضائقة هذه الأسرة، وأنها أولى بنفقة حَجِّه؛ حيث إن حَجَّه كان تطوعًا، لأنه كان قد أدى حجة الفرض؛ فأعطاهم ابن المبارك نفقة الحج، ثم رجع، وقال: هذا أفضل من حجنا هذا العام.

وهذا الفهم فقه دعا إليه القرآن الكريم، حين بيَّن الله أن جنس أعمال الجهاد في سبيل الله، وإعانة المجاهدين أفضل من جنس أعمال الحج، قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩].

ويؤكد القرآن الكريم أفضلية الجهاد في سبيل الله وأولويته: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠].

وهذه دعوة قرآنية إلى المتطوعين بالحج كل عام أن يوجهوا هذه النفقة إلى رعاية البائسين من المرضى والمحتاجين، وإخواننا في بلاد العالم الإسلامي بين بطالة ومجاعة وحصار ومرض وَيُتْمٍ وديون وتهجير وكوارث شتى ... وكل هذه الحالات النفقة فيها أولى.

حـ- غياب التفكير العلمي:

غياب التفكير العلمي الذي يقوم على التعامل مع الحقائق ولا يعتمد الأوهام ولا الشكوك ولا العشوائية، ويعمل بهدي القرآن ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، ويعتمد الدليل العلمي في الحكم على الأشياء: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، كذلك يعتمد الدليل العقلي، قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، وقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، والربط بين الأسباب والنتائج، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤، ٨٥]، كذلك الوعي بسُنَنِ الله الكونية التي تجري على الناس جميعا دون تغيُّر ولا تبدُّل ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

وغياب التفكير العلمي جعل بعض الشباب يقع في التشكيك في الآخرين وفي المؤسسات العلمية والدينية وتشويه العلماء فجانبوا الحق واتبعوا الهوى.

ومن مظاهر غياب التفكير العلمي: الوقوع في خلل فادح في النظر إلى الوطن وحقوقه في مقابل حق الدين وحق الأمة.

فبعضهم ممن يعيش في البلاد الغربية لا يعترف للوطن الذي يعيش فيه بحقوقه بزعم أنه مسلم وحق الدين هو المُعْتَبَر عنده، على الرغم من أنه يعمل وينعم بكل الامتيازات من علاج وحماية وحرية في هذا الوطن.

كذلك بعضهم يهمل حق الوطن ظنًّا منه أنه يتعارض مع قيمة الأمة، وهذا التعارض خلل في فكره، فلا يتعارض قط حق الوطن مع حق الدين، ولا مع حق الأمة.

فحب الوطن والانتماء إليه نتعلَّمه من سيدنا رسول الله ﷺ فقد أحب مكة مكان مولده، وأحب المدينة وأهلها ودعا لها لأنها الوطن الذي رحَّب به ونصره وأحب أمته ﷺ ودعا لها، والنصوص في ذلك كثيرة.

(٢) الأسباب النفسية:

هناك أنواع عديدة من العدوان يعرفها علماء النفس تتميز بالخفاء، مثل مُختلَف أنواع المرضى نفسيًّا، وكذلك ما تفيض به أحلام النوم وأحلام اليقظة من صور للعنف البالغ، فالحالة المؤلمة التي يشعر بها الفرد داخليًّا بسبب التوتر والانفعال والقلق والإحباط قد تخلق لديه دوافع عدوانية عنيفة، وما يراه في الإعلام غير المسؤول قد يؤسِّس للعنف والإرهاب.

والظلم الفادح الذي يقع من المحتل ويَعْجِز أهل الأرض وأصحابها عن دفع هذا الظلم أو مقاومته يُولِّد في الشباب روح الانتقام، وخير مثال لهذا ما يحدث في أرض فلسطين من الصهيونية المدمرة لكل قيم الإنسان وحقوقه.

أيضًا حالة الاغتراب التي يعاني منها الشباب العربي تُعَدُّ من أكبر الدوافع لظهور العنف والإرهاب.

- **اغتراب الشباب:**

من بديع مأثورات تراثنا العربي، قولهم «**الفقر في الوطن غربة، والمال في الغربة وطن، وفقدان الأحبة غربة.. شيء مؤلم**

أن يحس الإنسان في وطنه بالغربة .. ويزداد هذا الشعور حِدَّة بين الشباب في إطار حالة العجز العربي، والبطالة، والاختراق الثقافي، وحالات التراجع إلى الوراء .. !! إلى أن يصل إلى الغربة عن ذاته».

وفي إطار العجز الذي تمكَّن من الأمة العربية، يعيش الشباب حالة اغتراب عجيبة، نتجت عن غياب الشباب العربي عن ساحة الفعل والتأثير، إلى جانب ندرة فرص العمل وشيوع البطالة، والخوف من المستقبل، ومحاولات تغريب الفكر واحتلال العقل، فضلًا عن نهب الثروات في الأرض العربية المحتلة.

ومظاهر الاغتراب واضحة في شتى جوانب الحياة العربية، فالاغتراب داخل في نسيج حياتنا الثقافية والاجتماعية المعاصرة. ولما كانت اللغة مرآة المجتمع، فألفاظ اللغة العربية شاهد قوي على تغلغل حالة الاغتراب في صميم حياتنا، حيث تمتلئ اللغة العربية بالكلمات الدالة على الاغتراب ومظاهره، من خوفٍ وقلق وإرهاب وعنف وبطش

واضطهاد وقهر وظلم وتسلُّط ... إلى آخر هذا القاموس الذي يُجسِّد حالة الاغتراب تلك، فما العنف والبطش والاضطهاد سوى الوجه الآخر للاغتراب، العنف يولِّد الاغتراب، ويؤدي إلى الاغتراب أيضًا، والعلاقة بين هذين القطبين علاقة جدلية، فكلاهما قد يكون السبب وقد يكون النتيجة، فالطفل الذي يواجه العنف داخل مجتمعه يختزن هذا العنف ليمارسه في المستقبل.

ويزداد الأمر خطورة حين يصاحب هذا العنفَ ظلمٌ وقهرٌ واغتيال لأحب الناس إلى قلوبنا، على نحو ما نرى من مآسٍ وفواجع على أرض فلسطين والعراق وسوريا واليمن وليبيا وبورما، وغيرها؛ حتى صار أهل الوطن غرباء في أوطانهم، ولن تنسى هذه الأجيال لليهود والأمريكان ما يمارسونه ضدهم من قهر وعنف، وعجزهم عن رد هذا الظلم.

كما تبرز مظاهر الاغتراب في بعض أساليب التربية والتنشئة الاجتماعية، حيث ينشأ الطفل العربي في جو مشحون بالعنف والقهر، فيتحوَّل الطفل إلى كيان انطوائي ويفقد الثقة بنفسه،

وتضعف عنده القدرة على الإنجاز وتحقيق الذات، وتتوارى روح المبادرة والرغبة في التعاون والعمل الجماعي، ويعمل هذا كله على تغريبه ودفعه إلى دوّامة العجز والنقص والإحباط.

إن الاغتراب يسلب الإنسان صفة الإنسانية ويُحوِّله إلى (شيء) خالٍ من الروح المبدعة والشخصية المُبتكِرة، ويؤدي إلى انهيار الروح الفردية تحت وطأة احتلال الأرض ونهب الثروات واحتلال العقل وتشويه الفكر.

والاغتراب الذي يشعر به الشاب العربي مرجعه - في الأعم الأغلب - إلى خمسة أسباب:

١- **الحرمان من المشاركة في السلطة**: وهذا هو البُعْد السياسي لمفهوم الاغتراب، فالحرمان من المشاركة في السلطة ينتج عنه شعور بالاغتراب والانفصام عن المجتمع، وتعميق الهوَّة بين طبقة الحُكّام والمحكومين.

٢- **غياب معنى الحياة**: وهذا هو البُعْد الفلسفي لمفهوم الاغتراب، وإذا كان الدين الإسلامي قد وهب الشاب العربي معنى عظيمًا للحياة، فإن غياب الوعي الديني

وتـهميش دور الدين في الحيـاة - قـد أدَّيـا إلى تغريـب الشاب العربي وضياع معنى الحياة في نظره.

٣- **غياب المعايير**: وهو البعد الاجتماعي لهذه الظـاهرة، وفي مجتمعاتنـا العربيـة لا توجـد معـايير ضـابطة لمـا يسـبغه المجتمع على أبنائه من مظاهر التكريم والتقدير، ويرجـع هذا إلى سـطوة الماديـات وسـيطرة المصـالح الشخصـية وتقديمها على قيم العمـل والإنجـاز والكفـاءة ... كـل هذا يؤدي إلى فقدان الرغبة في العمل والإنجـاز، مـا دام بلا جدوى.

٤- **غياب القيم الأخلاقية والإنسانية**: وهذا هو البُعْد القِيَمِـي إن المجتمعـات العربيـة ليسـت بحاجـة إلى مُثُـل وقـيم أخلاقية جديدة، فالقيم موجودة بالفعـل، ولكنـه وجـود نظري، لا يستند إلى الواقع والممارسة، فالكل يتحدث عن القـيم والأخـلاق، ولكـن التطبيـق الفعـلي لهـذه القـيم الأخلاقية على أرض الواقع ليس على المستوى المطلـوب، بل قل: إنه تراجع كثيرًا كثيرًا وقد طغت القيم المادية عـلى القيم الأخلاقية والمُثُل الإنسانية حتى كادت تتـوارى مـن

حياتنا، مما أدى إلى نشوء أجيال من الشباب الحائرين الضائعين بين مُثُل أخلاقية نتحدث عنها كثيرًا، وقيم مادية نمارسها كثيرًا في واقع حياتنا.

٥- **الإحساس بالغربة عن الذات**: وهذا هو البُعْد النفسي لظاهرة الاغتراب، وهو نتاج العوامل السابقة جميعًا؛ إذ يشعر الإنسان بالغربة عن ذاته بعد أن فقد كل أساس تقوم عليه علاقته بالحياة، بعد أن فقد المشاركة في السلطة والقرار، وفقد المعنى الجوهري لوجوده، وغابت المعايير والقيم... ماذا يبقى للإنسان بعد هذا كله سوى الاغتراب عن ذاته، والانهيار تحت وطأة مشاعر الخوف والبؤس والقهر والاضطهاد؟!

(٣) الأسباب السياسية:

والحديث عن الأسباب السياسية يجرُّنا إلى كثير من المسائل التي لها علاقة بظهور الإرهاب أو توسيع أنشطته، ومنها: عدم الاستقرار السياسي وانفلات الأمن، فلا شك أن ذلك يؤدي إلى خلق بيئة صالحة للإرهاب.

كما أن وجود الاحتلال في الدول العربية المجاورة يخلق كثيرًا من أسباب العنف والإرهاب؛ وذلك لأن الشعب المحتل

يسعى دائمًا نحو مقاومة المحتل؛ فيؤدي ذلك إلى مواجهة الجيش المحتل لتلك الشعوب لإخضاعها بالبطش والقوة، مما يؤدي إلى وقوع العنف والإرهاب من قوى الاحتلال.

وقد يؤدي وجود أقليَّات سياسية إلى وقوع العنف والإرهاب إذا لم تستطع الدولة أن توجِد توازنًا سياسيًّا بين طوائف المجتمع، أو لم يحدث وفاق بين أفراد المجتمع الواحد، ولم تَعُد مصلحة الوطن ومصلحة الجميع فوق المصلحة الطائفية أو الفردية.

كذلك الانحراف بالقانون لمصالح خاصة، ويتخذه البعض وسيلة ضغط تُمارَس ضد المعارضين فهذه طامة كبرى.

الانحراف بالقانون وثقافة الفساد

تُسَن القوانين والتشريعات في جميع أنحاء العالم بوصفها معايير وضوابط لتنظيم مصالح الناس وحماية حقوقهم وعقاب المفسدين، فالقوانين والتشريعات تأتي على رأس عوامل الضبط الاجتماعي والأمن السلوكي في المجتمع، بما يجعل لكل إنسان حدودًا يقف عندها ولا يتعدّاها كي لا يضر بالآخرين .. وعلى قدر احترام المجتمع لهذه القوانين وتفعيلها، على قدر ما تؤتي هذه القوانين ثمارها.

لكن الطامة الكبرى أن يتحوَّل القانون إلى أداة للابتزاز والنهب والرشوة وفرض الإتاوات! وتشيع بين أفراد المجتمع والعاملين في المؤسسات الخدمية للدولة - مثل المحليات وغيرها - ثقافة جديدة في قضاء المصالح .. ثقافة بديلة لاحترام القانون (ثقافة الفهلوة، وفتّح مخك، ومشّي حالك، وخلّص، فيها مصلحة، وادفع وخالف) إلخ. وكلها تجتمع حول تعريفة مُوَحَّدة يدفعها المواطن إذا أحب أن يخالف القانون ليسكت الموظف عن هذه المخالفة .. أو إذا أحب الموظف أن يُعطِّل له مصلحته حتى يدفع المعلوم!

وأفرزت هذه السلوكيات في المجتمع ثقافة شاذة يمكن أن نطلق عليها: ثقافة الفساد .. ومعها لا أحد يحترم القانون، فالذين يُشرِّعون القوانين في مجلس الشعب مثلًا هم أول من يسعون بالحقائب المملوءة بطلبات ضد القانون للحصول على استثناءات من السادة الوزراء، وكذلك نجد سيارات عِلْيَة القوم لا تلتزم بقواعد المرور! إلى آخر هذه الصور الصارخة من الانحراف عن القانون بالقانون، ومن حُماة القانون وأهل

التشريع أنفسهم الذين يرون أنهم فوق القانون !

ويتساءل رجل الشارع البسيط قائلًا: إن لم يحترم أهل التشريع وحُماة القانون تشريعاتهم وقوانينهم فكيف يحترمها غيرهم؟!

ومن هنا فاحت الروائح التي تزكم الأنوف من الرشوة والاختلاس والقروض التي لا تُرَد، وتعطيل مصالح الناس بسبب الانحراف بالقانون للمصلحة الشخصية، وفرض ثقافة الفساد على كل من يريد أن ينجز عملًا في مصلحة ما .. حتى أصبح هناك تسعيرة للمُخالَفات بحيث يرتفع الثمن كلما عظمت المخالفة .. ولا عزاء للشرفاء!

والعجيب أننا نخلط الأوراق ولا نريد أن نعترف بهذا الواقع المؤلم الذي يعاني مخمصة أخلاقية!!!

ولقد وقف الإسلام الحنيف في وجه ثقافة الفساد، وردّ الناس إلى الصواب والحق والعدل .. ليس هناك أحد فوق الحق والقانون، ولا بد لأهل التشريع أن يحترموا تشريعاتهم، ولنا أسوة في سيدنا رسول الله ﷺ حين سرقت المرأة

المخزومية وأرسلوا إلى النبي ﷺ الحِب ابن الحِب أسامة بن زيد رضي الله عنه كي يشفع لها فلا تُقْطَع يدها، لِمَا لقبيلتها من مكانة بين العرب، فقام النبي ﷺ وقد احْمر وجهه غضبًا لمحاولة انتهاك حُرْمة التشريع وقال قولته الحاسمة: «**إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد**» ثم يقول ﷺ مؤكدًا أنه لا أحد فوق العدالة «**والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمدٌ يدها**»[1].

- إنها مشكلة خطيرة حين تكون مكانة الشخص فوق قداسة القانون!!!

وكما رفض الإسلام الاستثناء في العدل فإنه كذلك يرفض أن يستغل العاملون والموظفون في مؤسسات الدولة وظائفهم، فحين احتفظ عامل الزكاة بهدية أهديت إليه وقال حين دفع الأموال التي جمعها: هذا لكم وهذا أُهدِيَ إليّ؛ قال

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، حديث رقم (٣٤٧٥)، ومسلم: كتاب الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، حديث رقم (١٦٨٨).

لـه النبـي ﷺ بكـل صراحـة وبـدون مواربـة: «**أفـلا جلـس أحدكم في بيت أبيه وأمه فينظر أَيُهْدَى إليه أم لا؟!**»[1].

إن اسـتغلال الوظـائف للمنـافع الشخصـية جريمـة في نظر الإسلام.

علينا أن نواجه الواقع بصراحة وبلا مُوَارَاة فما حلّ بنا من هوان جدير بأن يوقظنا من غفلتنا لأننا نتحدث عـن مثاليـات نورانية، بينما أفعالنا تتمرَّغ في الوحل والطين.

وإنها لسُنَّة جارية لله في خَلْقِه: أن الناس تكون مكانتهم بقَـدْرِ أعمالهـم لا بقـدر أقـوالهم، قـال تعـالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

(٤) الأسباب الاجتماعية:

تؤثر العوامل الاجتماعيـة تـأثيرًا كبـيرًا في انتشـار ظـاهرة الإرهاب وتسهيل صياغته خاصة لدى فئة الشباب، ومن أهم تلك العوامل ما يلي:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الأحكـام، بـاب: هـدايا العـمال، حـديث رقـم (٧١٧٤)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب: تحريم هدايا العمال، حديث رقم (١٨٣٢).

(أ) انتشار ظاهرة الطلاق، وضعف مؤسسة الأسرة كانا من وراء ظهور أطفال الشوارع الذين هم نواة البلطجة.

(ب) انخفاض نسبة الزواج في ظل ارتفاع تكاليفه، وشيوع البطالة وأمراضها.

(جـ) انتشار المخدرات؛ حتى إن المجتمع ليتعرض لما يمكن أن يُطْلَق عليه: «**حرب المخدرات**» لتدمير الشباب، وتخريب الوطن.

(د) أسلوب وسائل الإعلام غير المسؤول القائم على ثقافة الإثارة والكسب السريع، وظهرت سياسة إعلامية سلبية: «**ادفع وقوووول**»، وطفت على السطح قيم سلبية لا تراعي تقاليد المجتمع وقيمه.

(هـ) تغلب المحسوبية والوساطة والعنصرية والقبلية على حساب العدالة الاجتماعية؛ حتى شاع في المجتمع ثقافة: «**ادفع وخاااالف**»، وبهذا تُؤخَّر الكفاءات والخبرات وتُقدَّم عليها الوساطات والمحسوبية والرشوة وأهل الثقة والحظوة.

(٥) الأسباب الاقتصادية:

تلعب العوامل الاقتصادية دورًا مهمًّا في توجيه سلوك الإرهاب عند الناس والمجتمعات البشرية، فالحاجة الاقتصادية لا يشبعها أي بديل محتمل، وكثرة المشكلات الاقتصادية تؤدي إلى تدمير الحضارة وأسس البناء الاجتماعي، وتترك آثارها على سائر أبناء المجتمع، فالبناء الاقتصادي يُسبِّب نمو علاقات اجتماعية معينة، فإذا كانت قائمة على الخُلُق أحدثت تماسكًا وترابطًا اجتماعيًّا، وإن كانت عكس ذلك ولدت السلوك العدائي والعنف.

إن دفع المجتمعات إلى الفقر يأتي تمهيدًا لفرض فكر المُستعمِر والعدو تحت خداع المساعدات وتوفير فرص عمل للشباب الضائع، فيجد الشاب نفسه مضطرًا للعمل في إسرائيل، ويقع دون أن يشعر تحت وطأة الحاجة في فخ تجارة المخدرات والأعمال المنحرفة.

(٦) ضعف المؤسسات التعليمية والدينية وتنازعها:

- شهادات الزور في التعليم:

- أصبحت شهادة التخرج في الجامعة شهادات زور، حيث إنها لا تعبر تعبيرًا حقيقيًّا عن الكفاءة العلمية، وليس

خافيًا على أحد أن بعض خريجي الجامعات يخطئون فى الإملاء !!! ... ومن يحسن منهم يحسن تسويد الأحبار والأوراق دون أى نجاح عملي !!! ... لهذا لا يصلحون لسوق العمل المحلية فضلًا عن العالمية.

إن ضعف المؤسسات التعليمية والدينية أوجد فراغًا في عقول الشباب، وكان الآخر يتمتع بتمام الجاهزية ليملأ هذا الفراغ بما يحقق مصالحه، وساعده في ذلك وسائل الاتصال الحديثة.

- أيضًا التنازع والصراع بين هذه المؤسسات يؤدي إلى تشرذم المجتمع، الأزمة حين تكون في النخبة فإن صداها قاتل ومخيف، فالناس تَبَعٌ لهم.
- كذلك انفصلت العملية التعليمية في التعليم العام والأزهر على السواء عن التربية والأخلاق، واقتصرت على تلقين المعلومات وحفظها دون وعي أو فهم أو قدرة على الاستنباط والاستنتاج وإقامة علاقات بين المعلومات، كل ذلك أدى إلى فراغ عقلي وفراغ خُلقي عند الشباب، والأسف البالغ أن التعليم عامة ما زال متشبعًا بهذه السَوْءات وتلك السلبيات، وذاك الجمود العقلي والفراغ الخُلقي.

- ومما يؤسَف له سقوط حلقة مهمة من حلقات التعليم لا يحضر فيها الأولاد للمدرسة، وهي حلقة التعليم الثانوي.
- وتسقُط الأخلاق سقوطًا ذريعًا حين تصل الأمور إلى أسوأ حالاتها بشيوع عملية الغش في التعليم عامة؛ حتى أصبحت ظاهرة تحار الدولة في السيطرة عليها كما حدث في امتحانات الثانوية العامة عام ٢٠١٦م.
- ولم تعد العلاقة بين المدرس والتلميذ - في الأعم الأغلب - قائمة على الأسوة والقدوة ولم يعد المدرس هو المعلم والمُربي، بل أصبحت علاقة مادية والجميع صامت عن الفعل الإيجابي .. مستسلم للتيار الجارف من هذه السلبيات، وإذا طُعنت الأخلاق في عُقر دارها فلا عزاء للأسوة والقدوة والأمل والمستقبل!!!

(٧) الفجوة الخطيرة:

لا أتحدث هنا عن الفجوة الرقمية والمعرفية التي تُعبِّر عن تراجع مستوى العرب والمسلمين في ساحة العلم والمعرفة، وتُعبِّر عن كسل العقل العربي في عصر الرقمنة وجوجلة المعرفة وإهلاك المعارف القديمة إلى حد يهددنا بالعزلة والتقوقع بعيدًا عن سباق الحضارة والعلم وخصمنا القريب منا (إسرائيل) له قفزات هائلة في النانو تكنولوجي.

لكني أتحدث هنا عن فجوة أخرى أكثر خطورة من كل الفجوات الأخرى؛ لأن أي تقدم يبدأ ببناء الإنسان، فالإنسان هو صانع الحضارة والتقدُّم.

الفجوة التي أقصدها هنا التي بين هويتنا والشباب، خاصة الذين تربوا وتعلموا في المدارس الأجنبية التي تُعلِّم بغير اللغة الوطنية، إنهم غرباء عن ثقافتهم العربية والإسلامية، إنهم ينتمون لثقافات أخرى تزرع بداخلهم من خلال المدارس التي يتعلمون فيها؛ لأنه لا يمكن أن تعزل لغة عن شحنتها الثقافية، لقد أصبحوا دون أن نشعر أو يشعروا منتمين لثقافة اللغة التي يتعلمون بها.

تدبَّروا معجمهم اللغوي في العربية الذي يتعاملون به فيما بينهم، تدبَّروا غربتهم عن لغتهم في عجزها عن فهم كلمات عربية ننظر إليها على أنها سهلة .. تدبَّروا سلوكهم وتفكيرهم في نمط الحياة (الثقافة الحياتية) إلى أي ثقافة ينتمون؟! إن تيار التغريب بالمجتمع عندنا فيه تسارع قوي يطغى على كل ملامح الهوية المصرية والعربية والإسلامية.

لقد اهتزت القيم وتغيرت وتبدلت عند كثير من الشباب، قيم الرجولة والصداقة؛ حيث أصبحت عند جانب من الشباب التعاون في جلب المتعة والحرام.

كل ذلك التغريب أضعف في هؤلاء الشباب روح الانتماء والوطنية ..

وهذه الفجوة الخطيرة صنعت فراغًا عند الشباب يستغله الأعداء بمنطق الجيل الرابع من الحروب في ملء هذا الفراغ بالتشكيك في كل الثوابت، وزرع المفاهيم الخاطئة.

والأخطر من هذا أننا مندفعون في سياستنا التعليمية لدعم هذا التغريب في أبنائنا بالتوسع في التعليم باللغة الأجنبية وأصبحنا في عَداء للغتنا الوطنية ولهويتنا وأصالتنا.

(٨) غول الفساد وثقافة القبح:

يبدو في هذا العنوان نوع من التناقض؛ إذًا كيف يكون للقبح ثقافة والقبح يتعارض مع كل النماذج الثقافية التي عرفها الإنسان؟!

والحق أن هذا صحيح، فكل الثقافات الإنسانية عبر التاريخ تحض على الجمال بوصفه قيمة عُلْيا، تشهد على ذلك

الفنون والآداب التي هي أساسًا تعبير عن القيم الجمالية وتجسيدٌ لها، بل لا تُعدُّ فنًّا ولا أدبًا إن لم تتمتع بقسطٍ موفور من القيم الجمالية شكلًا ومضمونًا.

● إذن فما هذا الشيء الذي نعنيه بثقافة القبح؟!

والجواب سهل يسير، فلقد نشأت عادات جديدة غريبة أزاحت القيم الثقافية وأطاحت بكل مُقوِّماتها، وتنامى هذا الكيان الجديد مُشكِّلًا نموذجًا بشعًا في ألوان السلوك وأساليب الحياة.

تجد هذا النموذج ماثلًا أمام عينيك: في المدن القبيحة ذات الأحياء المكتظة بالبشر، والبيوت المتلاصقة التي خلت من كل روح أو لمسة جمالية، والشوارع الملتفة كالأفاعي، وقد تناثرت في أحشائها المفتوحة كل صور التلوث والتشويه، والأرصفة القذرة المُكدَّسة بالباعة الجائلين وبضاعتهم الرديئة الملوثة.

ترى هذه الثقافة الرديئة في سلوك الناس، وجوه تعلوها الكآبة والبغضاء، ونظرات زائفة ملؤها الريبة والشك والحقد والخوف، ولغة خلت من الحب فصارت نوعًا من العدوان السافر، لا قلب ينبض بالحب، ولا كلمة طيبة، ولا حتى ابتسامة مجاملة.

ناهيك عن الصراعات الدامية، وكأنك في ساحة قتال غير منظم إذ تعبر الشارع أو تركب سيارة عامة، صرخات تُصِمُّ الآذان تتصاعد من كل مكان وسباب هنا وشجار هناك، وشبان يقفون على النواصي يدخنون المخدرات ويعبثون بالرائح والغادي، وقد تُسوِّل لهم عقولهم الغائبة الاعتداء على الناس.

وحتى الملابس القبيحة لا تعلوها مسحة من جمال: الجينز الضيق الذي تختنق فيه الأجساد وتنحشر وكأنها دُمَى أُلْبِسَت خِرَقًا باهتة قبيحة، وكذلك الملابس الممزقة التى يظهر منها الجسد بمظهر فجّ مقزز!!!

والجدران والمقاعد والأشجار في الأماكن العامة ـ إن وُجِدَت ـ ملوثة بكتابات عدائية، واجهات المحالِّ التجارية مصممة بطرق تؤذي العيون وتغتال الجمال.

أما الأطعمة التي كنا نستمتع بها فى الماضى فقد صارت ملوَّثة بالمبيدات السامة، وحتى حجمها أصبح غليظًا غريبًا، ينسحب هذا على كل طعام وشراب: من قطرة الماء إلى رغيف

الخبز، إلى الخضروات والفاكهة، وصدق الله العظيم ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

- النيل ... هذا النهر العظيم الذي نشأت على ضفافه حضارات عظيمة، انظر إليه إن استطعت أن تراه من كثرة ما أقيم عليه من مبانٍ قبيحة - وتجده يئنُّ مما يلقى فيه من مصادر التلوث: نفايات المصانع، والبواخر العائمة، وبأيدي الناس.
- المدارس سجون تضج بما فيها ومن فيها، وقد غابت منها الخضرة والأفنية الواسعة وأصبحت مجرد جدران يختنق مَنْ بداخلها.
- المصالح الحكومية علب سوداء يتكدس فيها البشر والأوراق والمقاعد بغير نظام تنعدم فيها كل لمسة جمال.
- ثمَّ تأمل طريقة تعامل الناس بعضهم مع بعض تجد القبح والتجهم والفظاظة، جنبًا إلى جنب مع الخوف والشك والريبة.

ـ وتأمَّل الطرائق المستحدثة في التحية والمجاملة: بين الشباب: تحيَّتهم بينهم التشاتم ومجاملتهم السباب.

ـ وانظر كيف يتصرف كل إنسان على طريقته الخاصة، وكأنما غابت القوانين والأعراف والمُثُل الأخلاقية، فصار كل إنسان يفعل ما يحلو له وبالطريقة التي تروقه وتعبِّر عن درجة القبح التي وصل إليها.

ـ لقد تنامى هذا الغول البشِع حتى ضرب بجذوره في كل نواحي حياتنا وأصبحنا نعيش في عالم قبيح، بلا قوانين ولا مثل، لكن ـ ثمة ـ في وسط هذا الخراب ما يدعو إلى التفاؤل، والشعور بأن من الممكن تجاوز هذه الثقافة البشعة، فما هي إلا قشرة سطحية، وتحت هذا القبح توجد المثل الجمالية الضاربة بعمق جذور الأمة وحضارتها، فقط علينا أن نبعث هذه القيم ونضيئها نبراسًا للساكنين، موقنين بأن الثقافة تربية، والتربية الجمالية في الإسلام لها مظاهر كثيرة وصور مفصَّلة.

نستطيع تأمل ذلك في الآثار الإسلامية ذات الطابع المعماري والجمالي الفريد.

وفي النصوص الإسلامية تتجلَّى الدعوة إلى الجمال والتمسُّك بالقيم الجمالية[١]:

إن الله جميل يحب الجمال. والجمال في شتى آفاق الحياة قولًا وسلوكًا، مظهرًا ومخبرًا .. وآيات القرآن الكريم وسنة الهادي البشير قادرة على تحويل كل مظاهر القبح في حياتنا إلى نور وهداية وجمال، كيف لا؟ وهدي القرآن والسنة هو الذي حَوَّل البداوة والتخلف والفساد في الضمائر والذمم وكل مظاهر العصر الجاهلي إلى حضارة وجمال للدنيا كلها تمثلت في حضارة خير أمة أُخْرِجَت للناس.

(١) راجع بتفصيل: الإسلام والجمال من كتاب: القرآن وصحوة العقل، د. محمد داود، دار المنار.

شبهة مردودة

هل الإسلام أمر بالقتل والإرهاب؟!

هناك من يزعم أن الإسلام دين العنف لا الرحمة، دين الإرهاب لا السماحة، ثم شنُّوا حملاتهم ضد هذا الدين العظيم الذي جعله الله رحمة للعالمين، فحاربوه بشتى الوسائل والأساليب على مواقع التواصل الاجتماعي، كما خُصِّصَت قنوات فضائية لذلك، وأُلِّفَت الكتب في هذا الشأن، ويستشهدون بأخطاء عَبْرَالتاريخ حدثت من بعض الأشخاص والجماعات، وفي التاريخ المعاصر يستشهدون بداعش في زعمهم أن الإسلام أمر بالقتل والإرهاب.

وهنا لنا أن نتساءل:

- هل هذه الأخطاء التي يجمعونها عَبْرَ التاريخ هي الأصل الذي عليه المسلمون، أم أنها استثناء؟!
- وهل هذه الأفعال مُنْكَرَة في الإسلام أم هي من تعاليمه وهَدْيه؟

فينبغي للوقوف على التفسير العلمي الصحيح أن تُقرأ هذه الأحداث في ضوء الحقائق التالية:

- التفرقة بين الدين وأفعال البشر.

ـ استخدام السياسة للدين في تحقيق مصالح وأهداف.

ـ الدسائس التي توجَّه إلى المسلمين من خصومهم.

ـ نبوءات النبي ﷺ وتحذير أمته من التفرق والتنازع.

أولًا: من المهم التفرقة بين الدين - بوصفه وحيًا إلهيًّا ينظم حياة البشر - والبشر أنفسهم وأفعالهم.

● فالدين (الإسلام) لا يدعو إلى عنفٍ أو إرهاب، وإنما إلى الرحمة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، ويدعو إلى العفو ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ [النور: ٢٢]، ويدعو إلى السلام؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وتحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله، واسم الله السلام، والجنة اسمها دار السلام، ونختم الصلاة بـ: السلام عليكم ورحمة الله، ونفتتح سور القرآن بالبسملة التي فيها اسمان من أسماء الله الحسنى: الرحمن والرحيم.

- والإذن بالقتال في الإسلام لمن ظُلِم لمواجهة المعتدي، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

- وقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:٥]، جاء في سياق سورة التوبة التي تتحدث عن قوم لا يرقبون في المسلمين عهدًا ولا ذمة، وهم بدءوا المسلمين بالقتال، وكل الشرائع والعقول تؤكد حق دفع الظلم والعدوان ومقاومة المعتدي.

- وقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، هو بالمعنى المعاصر بناء القدرة للدولة علميًا وسياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا .. ولذلك جاءت كلمة القوة نكرة لتشمل كل أنواع القوة في كل زمن.

وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[الأنفال: ٦٠]، بالمعنى المعاصر أن يكون للمسلمين قوة ردع تمنع المعتدي من التفكير في العدوان عليهم.

- ثم تأمَّل وتدبَّر آية في القرآن تحسم لك كل الشكوك التي يثيرها الآخر.. وهي: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا

يَعۡلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٦]، يعني لم يقل للآخر وهو ضعيف لاجئ إلى حماية المسلمين: اترك دينك واعتنق دين الإسلام، بل قال للنبي ﷺ: اعرض عليه الدين من باب حب الخير للناس ومعرفة الحق الذي أمر به الخالق، ولا تُكْرِهه على شيء، فله الخيار، ثم أبلغه مأمنه، فلقد نص القرآن على عدم الإكراه، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

- وللمسلمين في ذلك مواقف خالدة، فهذا رسول الله ﷺ عند فتح مكة يُصْدِر العفو العام عمن أساءوا إليه وحاولوا قتله، وسار على النهج سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند فتح بيت المقدس ... وهكذا.

فإلصاق ما يحدث من عنف بالإسلام ليس صوابًا ولا حكمًا علميًّا يستند إلى دليل صحيح.

ثانيًا: ما صدر من أخطاء متتالية بشأن الصراع على السلطة والحكم في تاريخ المسلمين هو من ألاعيب السياسة واستخدام الدين لتحقيق أغراض ومصالح شخصية.

- إن تاريخنا تاريخ بشر، يحتمل وجود أخطاء، لكنها استثناء لا يُقاس عليه، وإذا ما قورِنَ تاريخنا بتاريخ الآخرين،

ظهرت المزية في تاريخنا الذي أنقذ أوروبا في العصور الوسطى من ظلامها وتخلفها.

وحتى يتأكد للآخر أن الأخطاء البشرية شيء والدين شيء آخر، وأن ما أصاب المسلمين أصاب غيرهم، **فإننا نتساءل:**

- ماذا عن اليهود الذين قتلوا الأنبياء وأفسدوا في الأرض زمنًا طويلًا؟ وماذا عن إفسادهم المعاصر الممنهج في الأرض، والمذابح الفلسطينية لا تخفى على أحد والتي تتكرر مرات بعد مرات، وشنائع وفظائع الصهيونية، هل الدين اليهودي أمرهم بذلك؟!

- وبشأن المسيحية لا يمكن إغفال ما صنعته السياسة بالاستخدام السيِّئ للدين، كما حدث في محاكم التفتيش بأوروبا ومحاكمة العلماء، بل قتلهم باسم المسيحية وباسم الكنيسة، أيضًا لا يمكن إغفال الاستخدام السياسي السيِّئ للصليب الذي هو رمز للتضحية عند المسيحيين، فكيف يتم تحويله إلى رمز للقهر والحرب والتدمير في الحروب الصليبية؟!

وهذا بيان لواقع الأخطاء البشرية من أتباع كل دين، والدين عامة بريء من كل ذلك، وليس هناك أحدٌ حجة على الدين بل الدين هو الحجة على البشر.

ثالثًا: داعش هل هي صنيعة إسلامية، أم أنها صنيعة المخابرات الأمريكية لتشويه الإسلام والمسلمين، في أخطر مواجهة ضد الإسلام والعرب على كل المستويات؟

- وماذا قالت المؤسسات العلمية الدينية كالأزهر وغيره عن داعش؟
- هل أقرَّت فعلهم أم جرَّمته وبيَّنت أنه ضد الإسلام؟
- إن الحقيقة هنا هي: أنه ليس أحد حجة على الدين ولكن الدين حجة على البشر.

إن ما تقوم به تلك الجماعة من عنف وإرهاب ليس من الإسلام في شيء، ولا يجوز نسبته إلى هذا الدين الحنيف، فالغلو والتطرف هو الذي أدى بهذه الجماعة إلى ما وصلت إليه.

رابعًا: الدسائس التي كانت وما زالت تُحاك من الخصوم ضد المسلمين، واستخدام ضعاف النفوس، كل ذلك كان له نصيب وافر من هذه الأحداث والأخطاء، والصراع بين الخير والشر سُنَّة قائمة من سُنَن الله في كونه تجري في الناس إلى يوم القيامة.

خامسًا: نبوءات النبي ﷺ؛ حيث أخبر النبي ﷺ أمته عن هذه الأحوال بداية من عصره إلى يوم القيامة، وهي بمثابة تحذيرات للمؤمنين الصادقين حتى يلزموا باب الله في أوقات الفتن.

وكان النبي ﷺ يُزكّي كل سلوك من شأنه القضاء على الفتن والدسائس، باعتباره لونًا من الإرشاد لأمته، على نحو ما أثنى ﷺ على سيدنا الحسن بن على في نبوءته أن الله سيصلح به بين فئتين من المسلمين.

اللهم رد الناس جميعًا إلى الحق والصواب والعدل واهدهم إلى صراطك المستقيم.

- **شهادة بابا الفاتيكان**

تصريحات منصفة لبابا الفاتيكان نُشرت الأحد ٣١ يوليو ٢٠١٦م في العديد من الصحف الأجنبية منها:

النيوزويك ورابط الخبر:

http://europe.newsweek.com/pope-its-not-right-equate-islam-violence-isis-485840

التليجراف ورابط الخبر:

http://www.telegraph.co.uk/news/2016/07/31/pope-refuses-to-equate-islam-with-violence

الإندبندنت ورابط الخبر:

http://www.independent.co.uk/news/world/europe/pope-francis-isis-islam-violence-link-not-violent-religion-catholic-leader-comments-a7166656.html

وكالة رويترز ورابط الخبر:

http://www.reuters.com/article/us-pope-islam-idUSKCN10B0YO

- **ترجمة تصريحات بابا الفاتيكان**

بابا الفاتيكان يرفض الخلط بين الإسلام والإرهاب

في مؤتمر صحفي لبابا الفاتيكان عُقِدَ مؤخَّرًا خلال عودته من رحلته في بولندا إلى روما، وفي تعليق له على حادث ذبح قس فرنسي مُسِن على يد تنظيم داعش، رفض البابا مساواة الإسلام بالإرهاب قائلًا: «**لا يصح أن نربط الإسلام بالعنف والإرهاب؛ فهذا خلاف الحقيقة**».

وحين سُئِلَ عن سبب عدم إشارته إلى الإسلام في كل مرة يدين فيها عملًا إرهابيًّا يقوم به منتمون إلى الإسلام، أجاب قائلًا: «**لا تَسْلَم الديانات جميعها من وجود جماعات متطرفة متشددة بها، ونحن الكاثوليك لدينا مثل هذه الجماعات كذلك**».

«**إذا استوجب الأمر الحديث عن العنف الإسلامي، فيجب أيضًا الحديث عن العنف المسيحي؛ فحينما أطالع الصحف اليومية الإيطالية، أجد الكثير من القصص حول أعمال عنف تُرْتَكَب، ومَنْ يرتكبها مسيحيون كاثوليك**».

وأضاف قائلًا أنه: «**تحدَّث مع أئمة مساجد لا ينشدون إلا السلام**».

وأدان البابا تنظيم داعش الإرهابي قائلًا: «**إنهم يُمثِّلون أنفسهم فقط، ولا علاقة لهم بالإسلام**».

وأضاف قائلًا: « **إن الدين ليس هو القوة المحركة الدافعة للعنف**».

وأكد البابا أن من أسباب انتشار الإرهاب غياب القدوة وطغيان المادَّة وغياب العدالة الاجتماعية وحرمان الشباب من فرص عمل حقيقية تضمن لهم حياة كريمة، وتساءل:«**كم تركنا من الشباب دون قدوة، دون عمل، حتى اتجهوا إلى المخدرات والمسكرات، أو انضموا إلى جماعات متطرفة؟**»

- **شهادة منصف: (الإرهاب لا دين له)**

يقول د. نبيل لوقا بباوي تحت عنوان «الإرهاب لا دين له»[١]:

الإرهاب له غرض سياسي؛ فالثورة الفرنسية التي قامت في عهد «سان جست **Saint-Just**»[٢] قامت بقطع رأس مائة وأربعين ألف فرنسي وسجنت ثلاثة آلاف آخرين، كان هدف العنف الإرهابي في فرنسا هدفًا سياسيًّا وهو الحكم، وكذلك حادث اغتيال الأمير رودلف ولي عهد النمسا الذي ارتكبته مجموعة إرهابية صِرْبية، كان بالمثل ذا غرض سياسي أولًا وأخيرًا.

وكذلك ما اقترفته الولايات المتحدة الأمريكية ضد هيروشيما وناجازاكي باستخدام القنبلة النووية لأول مرة في التاريخ؛ مما أدى إلى مقتل ١٩٥ ألف مدني ياباني، غير مئات الآلاف من المُشوَّهين حتى اليوم كان لتحقيق أهداف سياسية، وما ترتكبه جماعة العنف الإرهابي في الألوية الحمراء

(١) الإرهاب صناعة غير إسلامية، د. نبيل لوقا بباوي، دار البباوي للنشر، سنة ٢٠٠٢، ص٦٣.

(٢) لويس أنطوان ليون دي سان جُست، قائد عسكري وسياسي فرنسي، شارك فى الثورة الفرنسية، وُلد فى ٢٥ أغسطس ١٧٦٧م، وكان عضوًا مهمًّا في حزب الجاكوبيين الثوري المتطرف الحاكم آنذاك، أُعْدِم في ١٧٩٤م مع بقية المسؤولين بعد أحداث ثيرميدور.

في إيطاليا غرضه سياسي، وما ارتكبته جماعة العنف اليهودي في صبرا وشاتيلا في عام ١٩٨٢م من قتل المئات من الفلسطينيين، وما ارتكبته جماعة العنف اليهودي في جنين عام ٢٠٠٢م، وكذلك المجازر البشرية بين جماعات العنف البروتستانت والكاثوليك في أيرلندا.

ولا نستطيع في أي زمان أو في أي مكان أن ننسب الإرهاب وتصرفات جماعات العنف إلى أي دين سماوي؛ فالديانات السماوية ديانات محبة وسلام، وليست ديانات مجازر بشرية، ولكن الساسة الغربيين وخاصة في أوروبا وأمريكا يكيلون بمكيالين؛ فيرددون أن الإسلام هو المسؤول عن تصرفات جماعات العنف الإسلامي رغم أن الإسلام يُحَرِّم هذه التصرفات.

وإذا كان هذا المعيار الصحيح، فبالمعيار نفسه لا بد أن نقول إن هناك إرهابًا مسيحيًّا ينسب إلى الإنجيل مثلما حدث في المجزرة البشرية في أوكلاهوما في أمريكا، وأن هناك إرهابًا يهوديًّا مسيحيًّا مثلما حدث في وقائع صبرا وشاتيلا، وفي جنين ينسب إلى التوراة، وأن هناك إرهابًا بوذيًّا قامت به جماعة

الحقيقة السامية في اليابان؛ مثل أحداث التسمم والموت بالمواد الكيميائية السامة في مترو الأنفاق في طوكيو.

ولكن الحقيقة التي يُقِرُّها كل عاقل أن الافتراء الذي يطلقه الساسة الغربيون والأمريكان على الإسلام بأن الإرهاب صناعة إسلامية، له هدف سياسي لتركيع الدول الإسلامية والعربية، وإلا فلماذا لم يقولوا عن الإرهاب في أيرلندا والمجازر البشرية بين البروتستانت والكاثوليك إنه صناعة مسيحية؟ أو لماذا لم يقولوا عن الإرهاب الذي حدث في أوكلاهوما إنه إرهاب أمريكي صناعة مسيحية؟ ولماذا لم يقولوا عن الإرهاب الذي حدث في صبرا وشاتيلا إنه إرهاب صناعة مسيحية يهودية؟ ولماذا لم يقولوا عن الإرهاب الذي حدث في جنين إنه إرهاب صناعة يهودية؟ ولماذا لم يقولوا عن الإرهاب الذي حدث في مترو الأنفاق في طوكيو إنه إرهاب صناعة بوذية؟! إنها - حقًا - سياسة الكيل بأكثر من مكيال، وهي الحرب الممنهجة على الإسلام، وليت المسلمين يعقلون هذا المعنى، بل ليتهم يُفيقون من سُباتهم، ويَثوبون إلى رشدهم!!!

- **ترويع الآمنين بين انحراف الفكر وكيد الأعداء**

الإسلام دعوة إلى الإيمان والأمن والسلام والتعايش بين الناس على اختلاف ألوانهم وأعراقهم وأديانهم وثقافاتهم.

وقد ضمَّت حضارة الإسلام بين أعطافها جميع ثقافات العالم وشعوبه، وعاش الناس في ظل دولة الإسلام آمنين من البطش والعنف والترويع والتفرقة العنصرية.

فلقد جاء دين الإسلام إنقاذًا للإنسان من كل ألوان الظلم والإفساد، وجاءت هداياته تحقق الأمن للفرد والمجتمع، فالإسلام يأمر أتباعه ألا يتعرضوا بسوء لأموال الناس وأعراضهم ودمائهم، وأن يحافظوا عليها، فالمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده.

وجعل الإسلامُ مقياسَ الخيرية للإنسان عند الله تعالى عطاءَه من الخير لمجتمعه وأمان الناس من شره، قال النبي ﷺ: «**خيركم من يرجى خيرُه ويؤمن شرُّه**»[1].

بل إن الأمن في الإسلام ممتد يشمل جوانب الأخلاق

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: الفتن، (٤/ ٥٢٨)، حديث رقم (٢٢٦٣)، وأحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة، حديث رقم (٨٨١٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

والمعاملات؛ فقد جاءت آيات القرآن الكريم صريحة في النهي عن الغيبة والنميمة وسوء الظن والكِبْر والتعالي والغش.. إلى آخر ذلك من الأخلاق السيئة، وكل هذا لتحقيق الأمن الأخلاقي في مجتمع المسلمين.

ودعا الإسلام إلى تأمين الناس في طرقاتهم ومساجدهم وأسواقهم، حتى لا يتعرَّضوا لأذى، بل أوجب حقوقًا للجلوس في الطرقات.

والأمن الذي يدعو إليه الإسلام ليس للمسلمين وحدهم، بل لهم ولغيرهم، قال النبي ﷺ: «**أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

ولقد أمر القرآن بالعدل مع غير المسلمين حتى وَ إنْ كان بيننا وبينهم بُغض وَعَداوة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، (٣/ ١٠٧)، حديث رقم (٣٠٥٢)، وصححه الألباني في تعليقه على السنن.

هذا ما يغرسه الإسلام من فكر يقوم على العدالة والرحمة، ومن سلوكيات حميدة تقوم على الخُلُق العظيم.

لكن المجتمع لا يَسْلَم من أشقياء ينحرفون عن صراط الله المستقيم، ومثل هؤلاء يُحْدِثون اضطرابات وأذى وإفسادًا في الأرض، وهم أحد شخصين:

■ **إما شخص أصابه خلل في فكره من خلال بعض التيارات المتشددة التي ترى في التشدد بطولة وقربة إلى الله تعالى:**

وهؤلاء واجههم رسول الله ﷺ حين بلغه أن شبابًا غالوا في عبادتهم، فقَالَ أَحَدُهُم: «أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا»، وَقَالَ آخَرُ: «أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلا أُفْطِرُ». وَقَالَ آخَرُ: «أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا». فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «**أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟! أَمَا وَالله إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح، حديث رقم (٥٠٦٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب: النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، حديث رقم (١٤٠١).

■ **وإما شخص باع نفسه لأعداء الوطن والدين ووافق أن يستخدموه في الأعمال الإجرامية:**

وهؤلاء واجههم الإسلام ووضع لهم الحدود الرادعة من خلال حد الحرابة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

وفي الحديث النبوي، قال ﷺ: «**مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا. فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا**»[1].

اللهم رُدَّ الناس جميعًا إلى الحق والصواب واهدهم إلى صراطك المستقيم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الشركة، باب: هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، حديث رقم (٢٤٩٣).

● **الرصاصة الذكية؟!**

لو مُنِحْت فرصة تسبق الخيال، لو أُعطيت رصاصة ذكية قاتلة لا تخطئ الهدف، وسُمِح لك أن تطلقها بشرط أن تحدد مصدر الشر والفساد في المجتمع، فإذا أطلقتها عليه انتهى الشر وذهب الفساد، وهنا ستصبح المشكلة في تحديد من الذي يتوفر فيه هذا الشرط، ويكون أساس كل شر وبلاء، فإذا قضيت عليه بهذه الرصاصة الذكية انتهى الشر من المجتمع.

وندور على نماذج المجتمع باحثين عن تلك الشخصية المُسْتَحِقَّة لهذه الرصاصة، والتي تَوَفَّر فيها الشرط واستجمع فيها الشر والفساد.

● **هل هو رئيس البلاد؟!**

والواقع يُكذِّب ذلك الاختيار، لقد تم قتل السادات فخسرنا واستبان لنا جهلنا وحماقتنا التي ارتكبناها باسم الدين، وما أصلحنا دنيانا بقتله، ولا أقمنا ديننا بموته، بل كان العكس تمامًا، فقد خسرنا بموته عبقرية سياسية فَذَّة؛ فلنذهب إلى غيره.

● **هل هم أعضاء مجلس الشعب؟!**

الذين يُشرِّعون للشعب ثم يخونون تشريعهم، فيكونون أول من يخترق ويهدم التشريع، لكننا لا نحتاج إلى قتلهم؛ لأنه بأيدينا أن نُغيّرهم، ونحن مسؤولون عن وجودهم في هذه السلطة، فنحن الذين انتخبناهم، وكم تغيَّر هذا المجلس، كم من نواب ذهبوا وكم من نواب جاءوا، والهمُّ هو هو، والفساد هو هو، إن قتلهم قرار غير صائب؛ فلنذهب إلى غيرهم.

● **هل هم أهل العلم والدعوة؟!**

الذين يقولون ما لا يفعلون، فبسببهم سقطت الأسوة والقدوة، ولكن يظهر من حالهم أنهم مغلوبون على أمرهم، أُريد بهم ما هم فيه، إنهم مساكين، بل إن كثيرًا منهم لا يجد ما يكفيه، بل بعضهم يستحق الزكاة والصدقة؛ إذن فلنتحوَّل إلى غيرهم.

● **هل هم رجال الأعمال وأصحاب الثروات؟!**

فهم المحتكرون، الذين يتاجرون بأزمات الناس، ولكن يظهر من الواقع أن السيئ منهم استثناء، وإلا فمن أين تأتي أموال الزكاة التي تدعم الخير في مصر، أنسيت أن القصر

العيني وجامعة القاهرة، ومبرة محمد علي، ومصر الخير، ومستشفيات الجمعية الشرعية ولجان الزكاة ـ من صدقات هؤلاء، فلنتحوَّل عنهم ونذهب إلى غيرهم.. وغيرهم.. وغيرهم؛ فلن ينطبق عليهم الشرط الذي اشترطناه، وهكذا كلما قصدت شريحة من شرائح المجتمع وجدت فيها من الشر ما يدفعك إلى إدانتها، لكن ما تلبث أن تجد بها من الخير ما ينفي عنها استحقاق الرصاصة.

ولعل بعد هذا التطواف الواسع بشرائح المجتمع يتأكد لي ولك أن الخلل أصابنا جميعًا. كلنا مُخطئون فاسدون بوجه ما، والرصاصة ليست حلًّا، فلا يمكن أن نقتل شعبًا بأكمله!!

جاءتني هذه الفكرة حين تدبَّرت حديث الشفاعة، وأن الله تعالى أعطى كل نبي دعوة مستجابة فتعجَّل كل نبي دعوته، وكانت الدعوة بمثابة رصاصة ذكية قاتلة لا تُخطئ الهدف، وأطلقها سيدنا نوح عليه السلام والأنبياء من بعده إلا رسول الله ﷺ، ولم تقضِ الرصاصة على الشر، وكان العلاج الناجع فيما اتبعه سيدنا رسول الله ﷺ يدعو بحكمة وبصيرة.. يُقنع .. يُربي .. ينفع الناس .. يُسامح ويعفو ويغفر.. يدفع بالتي هي أحسن، فيتحوَّل الشر إلى خير، دون حاجة إلى الرصاصة

الذكية القاتلة، قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤].

ولنا في سيدنا رسول الله ﷺ أسوة وقدوة.

وهذه الرصاصة ينبغي أن نطلقها على الشر الذي بداخلنا.. وعلى سلوكياتنا السلبية، قبل أن نفكر في إطلاقها على الآخرين.

ولله درُّ القائل:

«متى تلتمس للناسِ عيبًا تجد لهم
عيوبًا، ولكنَّ الذي فيك أكثرُ»

- **تدبَّر:**

كيف تُطفِئ النار بالنار؟!

وكيف يُقبل أن يكون حل المشكلة بكارثة؟!!!

إن الفكر الإصلاحي في سُنَّة رسول الله ﷺ أسوة في التغيير بحب وإقناع؛ فالإكراه على الإيمان لا يصنع الإنسان المؤمن، والإكراه على الفضيلة لا يصنع الإنسان الفاضل، وإنما الإقناع .. والتربية .. والأسوة والقدوة.

لماذا كل هذا العداء ضد المسلمين؟

بعد أن تأكدت الحقيقة لدى كل منصف، حقيقة أن الدين بريءٌ من تهمة الإرهاب، وأن الإرهاب صناعة سياسية لإدارة مصالح من صنعوه؛ فإن السؤال المحوري هنا هو: لماذا كل هذا العداء ضد المسلمين؟

- **والجواب: إن العداء ضد المسلمين له أسباب واضحة لأهل العلم والبصيرة، من أهمها الأسباب الآتية:**

١) الثروة البشرية المتصاعدة في الكثرة

- فمن بين ما يزيد عن ستة مليارات من البشر على وجه الأرض، يناهزُ تعداد المسلمين مليارًا ونصف المليار؛ أي حوالي ربع سكان الكرة الأرضية.
- ليس هذا فقط، فهذا الربع يتمتع بنسبة خصوبة عالية ونسبة توالد مرتفعة ـ على عكس كثير من المجتمعات الغربية التي تُعاني تناقصًا مستمرًا في نسبة المواليد ـ مما يرشح نسبة المسلمين إلى سكان العالم للزيادة باطِّراد.
- ولا شك أن هذا يثير قلق الخصوم الراصدين للإسلام وحركة المدِّ الإسلامي، خصوصًا في المجتمعات الغربية،

مما يدعوهم إلى إطلاق صَيْحات التحذير من أسْلمة أوروبا والغرب، كما تأسلم الشرق من قبل، إشاعة الفوبيا (الفزع) من الإسلام !!! ومنع الحجاب والمآذن ..إلخ.

٢) العملاق الساكن

- هذه الأعداد الهائلة لا تسكن طرفًا بعيدًا من الأرض، ولا تعيش مبعثرة مُجزَّأة متقطعة الأوصال، وإنما تتجاور في منطقة القلب والمركز منها، بما لهذه المنطقة من أهمية من مختلف النواحي؛ فهي عملاق نائم.
- وأخطر ما في الأمر أن يستيقظ هذا المارد العملاق فَيُلَمْلِم أطرافه ويضم إليه شتاته ويتوحَّد على منهج جَرَّبه من قبل، ودين ساد به العالم ـ حين التزمه ـ قرونًا عديدة.
- وعلى عكس الحضارة المدنية الغربية التي قامت على أنقاض الدين، فإن نهضة هذا المارد، زمن العِزَّة، قد بُنِيَتْ على قواعد الدين وعليها تأسست ومنها انطلقت وإلى مرجعيتها استندت.
- بعبارة أخرى، فإن تعاليم هذا الدين كانت الوقود المُحرِّك لقاطرة الحضارة الإسلامية قديمًا، وينتظر أن تكون كذلك

لأية صحوة ونهضة قادمة، وهذا هو عين ما يخشاه الخصوم، ولهذا يحرصون على الحيلولة بيننا وبين مرجعيتنا الحقيقية أشد الحرص وبشتى الوسائل.

٣) الاستعصاء على العَلْمنة والعَوْلمة بمفهومهما السلبي

- لقد هزمت العَلمانية الدين في الغرب حتى أدخلته في أزمة، فلم يَعُد الإيمان بوجود خالق لهذا الكون مُدبِّر له يتجاوز نسبة ١٥٪ من الأوروبيين، والذين يذهبون إلى الكنيسة نسبة نادرة من هؤلاء، والكنيسة تجتذبهم بوسائل شتى، ليس في مقدمتها الممارسات التعبُّدية بالضرورة، ولعل من أبرز هذه الوسائل وأحدثها هي فتح أبوابها ومنح موافقتها على زواج الشواذ، ومع ذلك فروَّاد الكنائس في تراجع، حتى لقد تنبأت بعض الدراسات بزيادة عدد المسلمين على عدد المسيحيين المُلتزمين دينيًّا في إنجلترا بعد سنوات.
- أما في العالم الإسلامي، فإن العَلْمانية التي جلبها الاستعمار الغربي في ركابه إلى الشرق الإسلامي لم تُحْرز تقدُّمًا يُذْكَر، بل زادت تحدياتها لهذا الدين - الإسلام الذي أرادت أن تُزْهِق روحه كما فعلت بالمسيحية في الغرب - صمودًا وحيوية فتنامت الصحوة واتسع المد الإسلامي.

هذه إجمالًا أبرز دوافع العداء للإسلام والتَّربُّص له.

• **اعتراف صريح**

توكيدًا لما سبق ذكره، نُورد هنا بالنص كلامًا صريحًا لمُنَظِّري الاستراتيجية الأمريكية المعاصرة: فُوكُوياما[1] وهْنتِنْجتِون[2]؛ إذ يقولان:

«الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة في العالم التي يمكن الجدال بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة الأمريكية المسيطرة في السياسة الدولية، فالعالم الإسلامي يختلف عن غيره من الحضارات في وجه واحد مهم، فهو وحده قد وَلَّد تكرارًا خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة ترفض، ليس السياسات الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة: الدولة العلمانية نفسها»[3].

---

(١) فرانسيس فوكوياما، عالم وفيلسوف، واقتصادى سياسى، وأستاذ جامعى أمريكى، وُلد فى ٢٧ أكتوبر ١٩٥٢م، فى ولاية شيكاغو الأمريكية، من مؤلفاته: «نهاية التاريخ والإنسان الأخير»، «أصول النظام السياسى».

(٢) صامويل هنتنجتون عالم وسياسى أمريكى، عمل أستاذًا فى جامعة هارفارد، وُلد فى ١٨ أبريل ١٩٢٧م فى مدينة نيويورك، وتوفى فى ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٨م.

(٣) راجع: دراسات فوكوياما وهنتنجتون فى العدد السنوى من مجلة النيوزويك الأمريكية، ديسمبر ٢٠٠١م، فبراير ٢٠٠٢م.

المبحث الثالث

الـوسـطيـة

• لماذا الوسطية؟! ولماذا الحـديث عـن الوسـطية في هـذا السياق اللاهب؟

معلوم أن الإسلام دين الوسطية واليسـر ورفـع الحـرج، ونبذ الغلو والتطرف والإرهاب والتكفير، وكل ما خرج عـن التوسط واليسر فليس من الإسلام في شيء، بـل هـو منـاقض لحقيقة الإسلام وخارج عن منهجه الحكيم.

فالأمة الإسلامية خير أمة أُخْرِجَت للناس؛ قائمة بالعدل، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، مجانبة للغلـو، وقـد اسـتحقت الصدارة في المجتمع الإنسـاني؛ لمزايـا وخصـائص، أهمهـا عـلى الإطلاق: أنها الأمة الوسط، فبوسطيتها استحقت الخيرية.

وتأتي أهمية الحـديث عـن الوسـطية الآن؛ لأن المسـلمين اليوم - وهم يواجهون مشكلات الحضارة وتحديات العصـر في معركة البقاء - لا يواجهـون ذلـك كلـه وهـم عـلى مـنهج واحد، بل هناك اتجاهـات نشـأت بعيـدًا عـن المـنهج الوسـط

الذي ارتضاه الله لنا، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فكل انحراف عن هذا المنهج الوسط يُولِّد الفُرْقَة والتناحر والتشتُّت، وتصبح الأمة فريسة سائغة للأعداء والخصوم، وبحسبنا أن نسأل أنفسنا:

كيف سقطت القدس؟!

وكيف سقطت بغداد؟!

وكيف سقطت من قبل بلاد الأندلس؟!

وكيف زُرِعَت الفتن في أرض الإسلام؟!

وكيف أصبح حالنا الآن في معظم البلدان الإسلامية، مؤسفًا ومؤلمًا، بل مأساويًّا؟!

والسؤال المستحق هنا:

من مزَّق وَحْدة المسلمين؟!

ومن أشعل بلادهم حريقًا تُسْفَك فيه الدماء ليل نهار؟!

ومن الذي جعلهم في أسفل درجات السلم الحضاري؟!

سيقولون: الأعداء والمؤامرة !!!

ولكن: ماذا يصنع الأعداء كلهم لو كان المسلمون في تماسك واتحاد؟!

ماذا تفعل جرثومة المرض إذا كانت مناعة الجسم قوية؟!

وإذا كان كلنا يتكلم عن الوحدة الإسلامية، فمن المُتفرِّقون إذن؟!

وإذا كان كلنا يَدَّعي الوسطية، فمن الغُلاة إذن؟!

• المشكلة أننا أمام تيارين في المجتمع، كلاهما في حالة صدام مع الآخر:

- **التيار الأول**: تيار التفريط في الدين وثوابته، والتهاون بحقوق الدين وواجباته، واتباع الهوى، وإيثار الشهوات.
- **والتيار الثاني**: تيار الغلو والتشدد الناشئ عن سوء فهم لحقيقة الدين ومقاصده، أو هو رَدُّ فعلٍ نفسي مضاد لتيار الانحلال والتفريط.

• **والسؤال المحوري هنا:**

من الذي يُعيد الأمة الوسط إلى الصدارة ويبعث فيها الحياة والروح؟

هل الخصوم هم الذين سيفعلون هذا؟!

إن الخصم لن يسعى إلا لمصالحه؛ حتى لو كان ذلك فيه هلاكنا؛ فإنه لن يدخر وسعًا في ذلك، وهو ما يُصنع الآن بنا وبأوطاننا، من تفكيك وتهجير ودمار وخراب، ويقع كل ذلك تحت اسم زائف مُضلِّل، هو: الربيع العربي، وما هو إلا الخراب العربي، وتحت اسم: الحرية، وما هي إلا الفوضى.

إن الذي يعيد الأمة الوسط - بحق - هو عودة الأمة إلى هدي ربها طائعة، هذا الهدي الذي يتمثل في الفهم الصحيح للقرآن والسنة، وذلك بأن تتخلى عن سلبياتها المتراكمة التي صارت أخطر علينا من أعدائنا، وأن تسعى لتؤدي دورها، وهذا لا يتحقق في واقع الأمة إلا بثلاثة قرارات مهمة:

- قرار علمي يحدد ماذا ينبغي أن نفعل؟ وكيف نفعل؟
- وقرار سياسي سيادي يُمكِّنُ للقرار العلمي.
- وقرار اقتصادي يضع كل القرارات العلمية والسياسية في موقع إمكانية التنفيذ والتفعيل.

ويواكب ذلك أن نتخلى عن قيم الهدم والأخلاق السلبية، ونتحلى بقيم الحضارة والإيمان، فإن العظمة لا تتأتى من فراغ! إن العظائم كُفْؤُها العظماءُ.

أما أنْ ترفع كل جماعة وكل فرقة راية الخلاف والتعصب ونتبادل الاتهامات، ويتحول اختلافنا إلى تنازع وصراع وعداء، فهذا أمر يُنْذِر بكارثة أخطر مما نحن فيه.

والإنسان العاقل لا يستطيع أن يقف محايدًا إزاء هذا الواقع المر التعيس لأحوالنا، ولا يستطيع أن يتجاهل مسؤوليته تجاه نفسه وتجاه وطنه وأمته، فإن عظمة العالِم الحق والمثقف الرشيد إذا ما شاع الفساد وعمَّ البلاء، ألَّا يذوب في تيار الفساد، وإنما يقف موقف المعالج المرشد الناصح لأمته (فالدين النصيحة)، وخاصة أن الدين الإسلامي اليوم بات

يواجه تحديات كبيرة وهجمات شرسة على مبادئه؛ حيث تلصق به التهم والشبهات زورًا وبهتانًا، من ذلك: وصف الإسلام بأنه دين العنف والإرهاب، وأنه يُكدِّر السلم والأمن الدوليين؛ لذلك وجب بيان الحقائق لمواجهة هذه الموجات العاتية من صناعة الزيف؛ ولمواجهة العنف والغلو والإرهاب والتكفير في واقع المسلمين.

ويعرض هذا المبحث حقيقة الوسطية في المنهج القرآني وفي السنة النبوية، وبيان حقيقة الوسطية في العقيدة، وفي التشريع، وفي الأخلاق والسلوك، وفي الاختلاف، وفي التعامل مع الآخر.

تمهيـــد

مفهـــوم الوسطيـــة

الوسطية في اللغة ترجع إلى معانٍ ثلاثة:

الأول: معنى الخيريـة والعـدل؛ فـالعرب كانـت تصـف الإنسان الفاضل في نسبه بأنـه مـن أوسـط قومـه[١]، أي: مـن خيارهم وأفضلهم.

الثاني: معنى الاعتدال والتوازن في كل الأمور، قال الراغـب في مفرداته: الوسط: «القصد المصون عن الإفراط والتفريط»[٢].

الثالث: معنى التوسُّط بين طرفي الشـيء، أي الوقـوع في منتصفه، أو التوسُّط بين أمرين.

وأَخَصُّ ما يدل عليه لفظ الوسط هو الاعتدال، قال ابـن فارس: «(وسط) الواو والسين والطاء: بناء صحيح يدل عـلى العَدْل. وأعدل الشيء: أوسطه ووسطه»[٣].

---

(١) لسان العرب: (و س ط).

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، بيروت، والدار الشامية، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ، ص٨٦٩.

(٣) مقـاييس اللغـة، ابـن فـارس، تحقيـق: عبـد السـلام هـارون، دار الفكـر، بـيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، (٦/ ١٠٨) مادة: (و س ط).

وجاءت مشتقات كلمة الوسطية في القرآن الكريم في خمسة مواطن:

١. قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: جعلناكم أعدل الناس وأخيرهم(١).

٢. قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، بمعنى: أوسط الصلوات محلًّا ومقدارًا(٢).

٣. قوله تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، بمعنى: أعدله؛ أي أوسطه في القدر والجنس(٣).

٤. قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨]،

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، (٣/ ١٤٢). تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، (١/ ٤٥٤). زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، (١/ ١١٩).

(٢) زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج ابن الجوزي، مرجع سابق، (١/ ٢١٥).

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، مرجع سابق، (١٠/ ٥٣١).

أي: أعدلهم وأعقلهم وأفضلهم[١].

٥. قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ [العاديات: ٥]، ومعناها هنا: التوسط في المكان[٢].

وبالنظر إلى هذه المعاني الواردة لمفهوم الوسطية في القرآن الكريم نجدها وثيقة الصلة بالمفهوم اللغوي لها؛ حيث إن المعاني اللغوية جميعها تصب في المعنى الشرعي للوسطية، ويمكن اعتبار المعاني اللغوية مُكوِّنات دلالية للمعنى الشرعي القرآني، الذي يعني في مجموعه: الخيرية والاعتدال والتوازن في كل الأمور؛ فلا إفراط ولا تفريط.

وتأتى الوسطية في السنة النبوية بدلالة توافق تمامًا معناها في القرآن الكريم، وهو العدل والخيرية، حيث فسَّر النبي ﷺ الوسطية بالعدل، عن أبي سعيد الخدري قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يُجَاءُ بِنُوحٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ:

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، مرجع سابق، (٢٣/ ٥٥٠). الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، (١٨/ ٢٤٤).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، مرجع سابق، (٢٤/ ٥٦٤). الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، (٢٠/ ١٦٠).

نَعَمْ يَا رَبِّ. فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ. فَيَقُولُ: مَنْ شُهُودُكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، قال: «**عدلًا**»، ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]»[1].

الخلاصة:

أن مصطلح الوسطية الإسلامية يُقْصَد به: الخيريةُ والاعتدال والتوازن في جوانب الإسلام وتشريعاته كافة، بحيث تنتفي عنه كل مظاهر الغلو والتشدد والإفراط أو التفريط.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وما أمر النبي بلزوم الجماعة وهم أهل العلم، (٩/ ١٠٧)، رقم (٧٣٤٩).

مظاهر الوسطية الإسلامية

لمَّا كانت الوسطية هي السمة الثابتة والعلامة المُمَيِّزة لبناء الإسلام المُحْكَم، فإنها تظهر بوضوح في كل باب من أبوابه: في الاعتقاد، والتشريع، والعبادة، والشهادة، والحكم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخلاق والمعاملة، ومطالب النفس وشهواتها، فهي وسطية جامعة.

لقد انطبعت الحضارة الإسلامية بالوسطية في كل القيم والمُثُل والمعايير والأصول، وهي إنما بلغت هذا المقام لأنها بنفيها الغلو الظالم والتطرف الباطل قد مثَّلت الفطرة الإنسانية في بساطتها وعمقها وصدق تعبيرها عن فطرة الله التي فطر الناس عليها، ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]، وقد أراد الله ﷻ أن تكون الوسطية هي صبغة أمة الإسلام وأخص سمات هذا الدين، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، إنها الحق بين باطلين، والعدل بين ظلْمين، والاعتدال بين تطرُّفين، وفيما يلي بيان بأهم مظاهر الوسطية:

أولاً: مظاهر الوسطية في هدْي القرآن الكريم

من أهم مظاهر الوسطية في القرآن الكريم ما يأتي:

أولًا: نهيه ﷻ عن الغلو في الحكم بين الناس، حيث أمر بالعدل، والظلم خلاف العدل، وهو ميل إلى أحد الطرفين على حساب الآخر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾[النساء: ٥٨]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

والآيتان دليل على أمر الله تبارك وتعالى باتباع ما من شأنه تحقيق خيرية هذه الأمة؛ فأمرهم أن يحكموا بالعدل؛ ليس فقط في حكم بعضهم على بعض، بل حتى في حكمهم مع أعدائهم، فالعدل في الحكم مع الأعداء من مظاهر هذه الخيرية التي خَصَّ الله ﷻ بها هذه الأمة.

ثانيًا: نهيه ﷻ عن الغلو في دعائه[1]؛ حيث أمر بالتوسط فيه دون الجهر وفوق السر، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

ثالثًا: نهيه ﷻ عن الغلو في طلب الدنيا، وعن الرهبنة في طلب الآخرة، فلم يأمر بالاستغراق في الدنيا، كما لم يأمر بتركها، إنما أمر بالتوسط، فالدنيا سُلَّم الإنسان للآخرة، يأخذ منها ما أحلَّه الله ﷻ، ويعيش فيها بما أباحه الله، ويستعد بذلك للآخرة، قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

رابعًا: نهيه ﷻ عن الغلو في النفقة بالمال؛ حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقوله تبارك

(١) الدعاء هنا يقصد به العبادة.

وتعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

خامسًا: نهيه ﷻ عن تحريم الطيبات، وهو من الغلو في التزهُّد؛ لأن هذا الزهد سَلْبِيٌّ نهى عنه الإسلام. ونهيه تعالى عن الإسراف، وهو من الغلو في الاستغراق في الدنيا وملذاتها، والصراط المستقيم بينهما، يقول ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣١ - ٣٣].

وخلاصة القول: أن هذه الآيات كلها وغيرها دليل ساطع على أن القرآن الكريم قد أمرنا باتباع الصراط المستقيم، الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط، فسبحان من هذا هديه.

ثانيًا: مظاهر الوسطية في هدْي السنة النبوية المطهرة

جاءت السنة النبوية مُعبِّرة عن وسطية الإسلام ومؤكدة هدْي القرآن الكريم في ذلك، ومن هذه النصوص ما يأتى:

أولًا: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النبي ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النبي ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النبي ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟**

قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا.

وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ.

وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا.

فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَال: أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَالله إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ لَه، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح، حديث رقم (٥٠٦٣). ومسلم في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، حديث رقم (١٤٠١).

إن الرسول ﷺ بيَّن أن التشدد في العبادة ليس من سنته؛ فمن باب أولى أن يكون التشدد والمبالغة والغلو في الأمور الأخرى خارجًا عن السنة.

ثانيًا: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ. هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ. هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**»[1].

والمتنطعون هم: المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم. والحديث دليل على أن التوسط والاعتدال في الأمور هو سبيل النجاة من الهلاك؛ فذمُّ المغالاة والمجافاة وتجاوُزُ الحد في الأقوال والأفعال، دليل على أن المطلوب هو التوسط.

والتنطُّع مُتصوَّر في الطرفين؛ فمن تشدَّد في طلب الدنيا والسعي وراءها دون الآخرة، فقد تنطَّع في طلبها وهلك، ومن تشدَّد في مجافاتها والغلو في تركها والبعد عنها، فقد تنطَّع وهلك، والتوسط بينهما هو المطلوب، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: العلم، باب: هلك المتنطعون، حديث رقم (٢٦٧٠).

ثالثًا: ذكر ﷺ أن الغلو في التعبُّد من سمات طائفة تَمرُق[١] من الدين كما يَمْرُقُ السهم من الرمية، فعن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه قال: «**بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ، وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْمًا، أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، اعْدِلْ!**

فَقَالَ: وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟ قَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ.

فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ!

فَقَالَ: دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ القرآن لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ .... ». الحديث[٢].

فهؤلاء غالوا في العبادات بلا فقه؛ فآل الأمر بهم إلى البدعة، فقال ﷺ: «**يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»[٣].

رابعًا: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « **إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ،**

---

(١) تمرق بمعنى: تخرج.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة، حديث رقم (٣٦١٠). ومسلم في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث رقم (١٠٦٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة، حديث رقم (٣٦١٠). ومسلم في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث رقم (١٠٦٤).

وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ»[1].

والمعنى أنه: لا يغالي أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيُغلب؛ ولذلك أمر النبي ﷺ بالسداد - وهو التوسط في العمل من غير إفراط ولا تفريط ـ وبالمقاربة؛ أي: إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه.

ثم بعد ذلك بشَّر النبي ﷺ بالثواب على العمل الدائم وإن قَلّ.

ومن ثمَّ؛ فالحديث نص صريح في أن الدين يسر، وأخْذ بالأمر الوسط، دون تفريط ولا إفراط.

خامسًا: عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: الدين يسر، حديث رقم (٣٩).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: العلم، باب: ما كان النبي ﷺ يتخولهم، حديث رقم (٦٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب: في الأمر بالتيسير وترك التنفير، حديث رقم (١٧٣٤).

والحديث يأمر بالتيسير وترك التنفير والتعسير؛ إذ اليسر هو السماحة وترك التشدد، وخير الأمور الوسط، وقد بَوَّب البخاري على الحديث في كتاب الأدب «باب قول النبي ﷺ: «**يسروا ولا تعسروا**»، وكان يحب التخفيف واليسر على الناس».

سادسًا: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على رَاحِلَته: «**هَلُمَّ الْقُطْ لِي، فَلَقَطْتُ لَهُ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَي الْخَذْفِ، فَلَمَّا وَضَعْتُهُنَّ فِي يَدِهِ قَالَ: بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ**»[1].

فالحديث نص صريح في النهي عن الغلو في الدين، ثم نبَّه الحديث إلى قضية خطيرة جدًّا، وهي أن الغلو في الدين كان من أسباب هلاك الأمم قبلنا.

مما سبق نخلص إلى أن: هذه النصوص النبوية الصحيحة الثابتة تدل بوضوح على أن حقيقة هذا الدين: التوسط والاعتدال، وتؤكد أنه دين ينافي الغلو والتشدد.

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب: المناسك، باب: قدر حصى الرمى، حديث رقم (٣٠٢٩)، والنسائي في سننه، كتاب: مناسك الحج، باب: التقاط الحصى، حديث رقم (٣٠٥٧)، وصححه الألباني في صحيح السنن.

تطبيقات على الوسطية
(في العقيدة والعبادة والأخلاق والمُعاملات)

أولاً: الوسطية في العقيدة:

العقيدة الإسلامية الصحيحة بأصولها الثابتة، ودعائمها الراسخة، هي سبب سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة؛ وذلك لموافقتها الفِطَر السليمة والعقول الصحيحة.

ومما تمتاز به هذه العقيدة أنها وسط بين الغلوِّ والجفاء، والزيادة والنقصان، وأهلها أهل وسطية واعتدال بين الأمم؛ فهم وسط في التوكُّل على الله ﷻ، وفي توحيد الله وصفاته، وفي الإيمان بأنبيائه.

فالعقيدة الإسلامية مَبْنِيَّة على توحيد الخالق وتنزيهه، فليس هناك تعدد للآلهة كما كان موجودًا لدى الأمم السابقة، وإنما الإله في الإسلام له الكمال المُطْلَق، وكان من أثر هذا الاعتقاد التوكُّل على الخالق ﷻ وحده، وليس هناك إنكار للإله كما عند الماديين.

● **الوسطية في التوكُّل على الله**

جاء الإسلام وسطًا في عقيدة التوكُّل على الله ﷻ، وإقرارها في نفوس أهل الإسلام، دون إفراط أو تفريط، فلا ينقطع المؤمن عن الأسباب والسعي والعمل، ولا يتعلق بالأسباب وحدها، فيوصينا الإسلام بالأخذ بالأسباب وإتقانها وسع الطاقة، كما يأمرنا الإسلام - مع الأخذ بالأسباب - بالتماس التوفيق من الله تعالى.

وهذا الهَدْي الربّاني وَسَط بين من يأتون الأسباب دون إيمان ولا توكُّل، وبين من يتواكلون فيهملون الأخذ بالأسباب ويكتفون بالدعاء والتماس معونة الله تعالى.

إن الله تعالى أمرنا أن نأخذ بالأسباب، والآيات في هذا المعنى كثيرة؛ من ذلك قوله ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقوله: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، وقوله: ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فكيف يكون تَرْكُ ما أمرنا الله به توكُّلًا عليه ﷻ؟!

إن فعل السبب طاعة؛ لأن الله ﷻ أمرنا أن نأخذ بالأسباب، وترك السبب معصية؛ لأنه مخالف لما أمرنا الله به.

والتوكُّل هو الاعتماد على الله تعالى، والاعتقاد الخالص بأن النافع هو الله، وأن القادر على كل شيء هو الله؛ ولذلك قال بعض السلف الصالح: «التوكُّل: هو أن الجوارح تعمل، والقلوب تتوكَّل».

وغياب أحد الأمرين (عمل الجوارح أو توكُّل القلوب) يُحوِّل التوكُّل إلى شيء آخر؛ فغياب الأخذ بالأسباب مع القدرة عليه يؤدي إلى التواكل، وغياب اعتماد القلب على الله يؤدي إلى الشرك؛ لذلك وصف العلماء المُحقِّقون من السلف الصالح - رضوان الله عليهم - حقيقة التوكُّل في ثلاث كلمات؛ هي: «فِعْل السبب طاعة، وتَرْك السبب معصية، والاعتماد على السبب شِرْك بالله تعالى».

وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «أُرْسِلُ ناقتي وأتوكَّل؟» قال ﷺ: «**اعْقِلْها وتَوَكَّل**»[1].

ويُبَصِّرُنا رسول الله ﷺ بثمرة التوكُّل الحق بقوله ﷺ:

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، حديث رقم (٢٥١٧). وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٦٨).

«لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»(١).

أي: تذهب الطير أول النهار جائعة، وترجع آخر النهار ممتلئة البطون.

- **أم السائب**(٢) **- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - ودرس في الوسطية**

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على أم السائب؛ أو أم المسيب فقال: «**مَا لَكِ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ**». قَالَتِ: «الْحُمَّى لاَ بَارَكَ الله فِيهَا»، فَقَالَ: «**لاَ تَسُبِّي الْحُمَّى فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ**»(٣).

وفي هذا دلالة أخلاقية عميقة تتصل بجملة من أصول العقيدة؛ حيث كانت أم السائب تزفزف، أي: ترتعد، وكان

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حديث رقم (٣٧٠)، وابن ماجه في سننه، كتاب: الزهد، باب: التوكل واليقين، حديث رقم (٤١٦٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٣١٠).

(٢) أم السائب، وقيل: أم المسيِّب: امرأة من الأنصار أدركت الرسول ﷺ وأسلمت، وروى عنها بعض الصحابة، منهم جابر بن عبد الله، وأبو قِلَابة. واسم السائب عند العرب مأخوذ من العطاء والجود.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، حديث رقم (٢٥٧٥).

في جوابها لرسول الله ﷺ ما يُعبِّر عن ألمها من مرض الحُمَّى، وبَدَرَت منها عبارة لا تتناسب ولا تليق بإيمان المؤمن؛ لأن المؤمن يعلم ويوقن أن الأمور لا تؤثر بذاتها، وإنما التأثير لقضاء الله وقدره.

فلِمَ التعجُّل بسَبِّ الحُمَّى أو بسَبِّ المرض عامة، أو بسبِّ الأيام أو الزمن، أو بسبِّ أي حدث من أحداث الحياة؟! وفي الحديث: قال النبي ﷺ: «**قال الله ﷻ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيدي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»[1].

أي أن المؤثِّر في أحداث الحياة هو قضاء الله وقدره، فأم السائب هنا لم تنتبه لهذا المعنى وسبَّت الحُمَّى، فأرشدها النبي ﷺ إلى عدم فِعْل ذلك، وبيَّن لها الحكمة من وراء عدم سب الحمى.

وهذا لا يعني أن الإنسان لا يحاول ـ إن كان مريضًا ـ أن يدفع المرض أو يحاول العلاج، أو يأخذ دواء؛ لأن هذا له أصل آخر من أصول الإيمان نبَّه عليه رسول الله ﷺ في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: وما يهلكنا إلا الدهر، حديث رقم (٤٨٢٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الألفاظ من الأدب، باب: النهي عن سب الدهر، حديث رقم (٢٢٤٦).

حديثه الذي يقول فيه: «**تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ: الْهَرَم**»[1].

فإذا كان الصبر وسيلة لتحمل آلام المرض وتخفيفها من الناحية المعنوية؛ فالدواء وسيلة أخرى لتخفيف هذه الآلام من الناحية المادية، وهذا من عظمة الإسلام حين يراعي هاتين الناحيتين، ومن ثَمَّ يكون التكامل بينهما.

ثانيًا: وسطية الإسلام في الأخلاق والتعامل والسلوك:

منهج الإسلام في الأخلاق واقعي، يراعي الطاقة المتوسطة لجماهير الناس، فاعترف بالضعف البشري، وبالدوافع البشرية، وبالحاجات الإنسانية، معنوية كانت أو مادية.

ولقد تجلَّت واقعية الإسلام حين شرَّع مقابلة السيئة بمثلها بلا حيف ولا عدوان، فأقرَّ بذلك مرتبة العدل، ودرء العدوان، ولكنه حثَّ على العفو والصبر والمغفرة للمسيء، على أن يكون مكرمة يرغب فيها، لا فريضة يلزم بها.

وهذا واضح في مثل قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث أسامة بن شريك ﷺ، حديث رقم (١٨٤٥٤)، وأبو داود في سننه، كتاب: الطب، باب: في الرجل يتداوى، حديث رقم (٣٨٥٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٩٣٠).

مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

ومن وسطية الإسلام في الأخلاق: أَنَّه أَقرَّ التفاوت الفطري والعملي بين الناس، فليس كل الناس في درجة واحدة من حيث قوة الإيمان، والالتزام بما أمر الله به من أوامر، والانتهاء عما نهى عنه من نواهٍ، فهناك مرتبة الإسلام، ومرتبة الإيمان، ومرتبة الإحسان وهي أعلاهن، كما أشار إلى ذلك حديث جبريل المشهور[1]، ولكل مرتبة أهلها. وهناك الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، كما أرشد إلى ذلك القرآن الكريم.

فالظالم لنفسه هو: المُقصِّر، التارك لبعض الواجبات، المرتكب لبعض المُحرَّمات.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ، حديث رقم (٥٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: الإيمان ما هو وبيان خصاله، حديث رقم (٩).

والمقتصد هو: المقتصر على فعل الواجبات، وإن ترك المندوبات، أو هو المقتصر على ترك المُحرَّمات، وإن فعل المكروهات.

والسابق بالخيرات هو: الذي يزيد على فعل الواجبات أداء السنن والمستحبات، ويزيد على ترك المُحرَّمات ترك الشبهات والمكروهات.

وإلى هؤلاء يشير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالآية الكريمة تجعل هؤلاء الأصناف الثلاثة ـ على تفاوت مراتبهم ـ من الأمة التي اصطفاها الله من عباده، وأورثها الكتاب.

• ومن وسطيَّة الأخلاق في الإسلام أنها لم تتصوَّر الكمال في أهل التقوى، وأن يكونوا سالمين من كل عيب، بعيدين عن كل ذنب، وكأنهم ملائكة؛ بل قدَّرت ضعف الإنسان، وطبيعته البشرية المُرَكَّبة من الروح والطين، فإذا كانت الروح تعلو به تارة، فإن الطين يهبط به تارة أخرى، وفضل المتقين على غيرهم

إنما في التوبة والرجوع إلى الله عند الوقوع في ذنب أو معصية.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

• إن الإسلامَ يُبارك الفضائل ومكارم الأخلاق، فلا يجهل مسلم أن الله ينهى عن الفحشاء والمُنْكَر والبغي، ولا يحب الفساد، ولا يحب الخائنين، وأن آية المنافق إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان، وأن من الكبائر الموبقات: أكلَ الربا، وأكلَ مال اليتيم.

ولا يجهل مسلم شناعة الجرائم التي فرض الله الحدود عقوبة عليها، مثل: قتل النفس عمدًا، والسعي في الأرض فسادًا بقطع الطريق وترويع الآمنين، والسرقة، والزنا، وقذف المُحْصَنات الغافلات المؤمنات، وشرب الخمر.

وقبل ذلك كله لا يجهل مسلم قيمة الأخلاق في الحياة، ومنزلتها في الإسلام، حتى إن العبادات الإسلامية تهدف إلى ثمرات أخلاقية، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة

التي تؤخذ من الأغنياء تطهرهم وتزكيهم، والصوم تربية للإرادة، وتعليم للصبر، والحج تدريب على التحمل والبذل والتسليم التام لله تعالى.

● **وسطية الإسلام بين البخل والإسراف**

إن الاعتدال هو جوهر الإسلام في الأنشطة البشرية كلها؛ فالإسلام ينهى عن البخل، كما ينهى عن الإسراف والتبذير، ويأمر بالتوسُّط والاقتصاد، قال تعالى مادحًا عباده المقتصدين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

هذا هو التوسط المأمور به، لا بخل ولا إمساك، ولا إسراف ولا تبذير، ولكن بين ذلك.

● إن الإسرافَ والتبذيرَ داءٌ فتَّاكٌ يهدد الأمم والمجتمعات، ويبدد الأموال والثَّروات، قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧].

إننا نرى كثيرًا من الناس مَنْ يجتمع على مائدته من ألوان الطعام وأصناف الشراب ما يكفي الجماعة من الناس، ومع ذلك لا يأكل إلا القليل، ثم يُلقي بالباقي في النفايات ويلقي معها دون أن يدري جُزْءًا من ضميره وأخلاقه، رغم أن هناك من الناس من يموتون جوعًا؛ وسوف يُسأل المسرفون عن إهدار هذه النعم وحرمان غيرهم منها؛ فَبِطْنَة الْغَنِيّ أَمارةٌ علَى هَضْمه حَقَّ الفقير، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

والإسراف سبب من أسباب الضلال وعدم الهداية في الدين والدنيا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]، كما أنه يؤدي بصاحبه إلى الكبر وطلب العلوِّ في الأرض قال ﷺ: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالبَسُوا وَتَصَدَّقُوا، فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلا مَخِيلَةٍ**»[1].

● ومن أبرز مظاهرِ الإسراف والتبذير في عصرنا الحالي هو: الإسرافُ والتبذيرُ في استخدام المرافق العامة والحيوية التي تقوم عليها حياةُ الناس؛ من ماء وكهرباء ونحو ذلك،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: اللباس، باب منه، معلقًابالجزم، ووصلة الحافظ في تغليق التعليق (٥/ ٥٢)، والنسائي في سننه، كتاب: الزكاة، باب: الاختيال في الصدقة، حديث رقم (٢٥٥٩)، وحسنه الألباني في تعليقه على سنن النسائي.

وكل هذا مما يخالف شريعة أحكم الحاكمين؛ لأن فيه تعديًّا على مصالح البلاد والعباد.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن الإسراف في استخدام الماء عند الوضوء حتى ولو كان الإنسان على نهر جارٍ، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**كَانَ النبي ﷺ يَتَوَضَّأُ بِالْمُدِّ**[١]، **وَيَغْتَسِلُ بِالصَّاعِ**[٢]، **إِلَى خَمْسَةِ أَمْدَادٍ**»[٣]، ونهى ﷺ المؤمن أن يزيد في غسل أعضائه في الوضوء على ثلاث مرات؛ فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النبي ﷺ يَسْأَلُهُ عَنِ الْوُضُوءِ. فَأَرَاهُ ثَلَاثًا، ثَلَاثًا. قَالَ: «**هَذَا الْوُضُوءُ فَمَنْ زَادَ عَلَى هَذَا فَقَدْ أَسَاءَ، وَتَعَدَّى، وَظَلَمَ**»[٤].

ما أحوجنا إلى أن نقتدي برسولنا الكريم ﷺ، وأن نمتثل الآداب المُحمَّدية التربوية سلوكًا واقعيًّا وعمليًّا، وأن ننتهي عن كل نمط سلوكي يُدمِّر هذه القيم وتلك الآداب، كي تنهض

(١) المُدُّ هو: مكيال من المكاييل التي يقدر بها الأشياء، وهو أقل من اللتر؛ حيث يساوى ٠,٦٨٨ لتر.
(٢) الصَّاع هو: مكيال تُكال به الحبوب ونحوها، هو أربعة أمداد، وهو أقل من ثلاثة لترات؛ حيث يساوى: ٢,٧٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الوضوء، باب: الوضوء بالمد، حديث رقم (٢٠١). ومسلم في صحيحه، كتاب: الحيض، باب: القدر المستحب من الماء في غسل الجنابة..، حديث رقم (٣٢٥). واللفظ لمسلم.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، (١١/ ٢٧٧)، حديث رقم (٦٦٨٤). والنسائي في سننه، كتاب: الطهارة، باب: الاعتدال في الوضوء، (١/ ٨٨)، حديث رقم (١٤٠)، وصححه الألباني في تعليقه على سنن النسائي.

أمتنا وتتقدم أوطاننا، وحتى لا يُهلكنا الله بسبب إسرافنا وعدم اعتدالنا!! قال تعالى: ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩]، وقال: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

• وكما أن الإسلام نهانا عن الإسراف والتبذير، فقد نهانا أيضًا عن البخل، فالبخيل عدو لكل ما ينفع الناس، وقبل ذلك هو عدو لنفسه؛ لأنه يَحْرِم نفسه من الضرورات، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ [محمد: ٣٨]، كما أن النبي ﷺ حذَّرنا من البخل فقال: «**إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشُّحِّ**»[1].

وخلاصة القول: أن نمط الإنفاق السليم، هو الذي يتميَّز بالبساطة والتواضع والاعتدال، ولا يعني ذلك عزوف الناس عن الاستفادة من الموارد التي مَنَّ الله بها عليهم، لسد حاجاتهم وتزويد أنفسهم بأسباب الراحة، وإنما يعني التوسُّط لما في ذلك من آثار إيجابية على الفرد والمجتمع، فإذا كان

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، (١١/ ٢٦)، حديث رقم (٦٤٨٧). وأبو داود في سننه، كتاب: الزكاه، باب: في الشح، (٢/ ١٣٣)، حديث رقم (١٦٩٨)، وصححه الألباني في تعليقه على سنن أبي داود.

البخل يقود إلى الحرمان من نعم الله تعالى، فإن الإسراف يقود إلى تبديد الموارد، وكلاهما آفة منهيٌّ عنها.

• **وسطية الإسلام في الحرية**

الحرية هي: قدرة الإنسان على فعل الشيء أو تركه بإرادته الذاتية، وهي مَلَكَة خاصة يتمتع بها كل إنسان عاقل ويصدر بها أفعاله، بعيدًا عن سيطرة الآخرين؛ لأنه ليس مملوكًا لأحد، والحرية في نظر الإسلام ضرورة حياتية من الضرورات الإنسانية، وفريضة إلهية، وتكليف شرعي واجب، وليست مجرد حق من الحقوق، يجوز لصاحبه أن يتنازل عنه إن هو أراد.

فالحرية في الإسلام لها معنى إنساني نبيل لا قيمة للإنسان بدونه، ومقامها فيه يبلغ من الأهمية مقام الحياة، التي هي نقطة البدء والمُنْتَهَى.

• **ومن ثمَّ كانت حرية الاعتقاد** هي من أهم الأشياء التي منحها المولى ﷻ لكل إنسان، بدءًا من خلق آدم عليه السلام وانتهاءً بما تعلمناه وقرأناه في آخر الرسالات السماوية: القرآن

الكريم رسالة خاتم النبيين ﷺ، ففيما يخص حرية الاعتقاد يقول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ولقد جعل الإسلام قضية الإيمان أو عدمه من الأمور المرتبطة بمشيئة الإنسان نفسه واقتناعه الداخلي؛ فقال ﷻ: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ [الكهف: ٢٩].

بشرط تحمُّل العاقبة، فالحرية تعني المسؤولية: أنت حُرّ فأنت مسؤول.

ومِن ثَمَّ لم يأمر الرسول ﷺ ـ والمسلمون من بعده ـ أحدًا باعتناق الإسلام قسْرًا، كما لم يُلْجِئوا الناس للتظاهر به هربًا من الموت أو العذاب؛ إذ كيف يصنعون ذلك وهم يعلمون أن إسلام المُكرَه لا قيمة له في أحكام الآخرة، وهي التي يسعى إليها كل مسلم؟! فالإكراه على الإيمان لا يصنع الإنسان المؤمن، والإكراه على الفضيلة لا يصنع المجتمع الفاضل، وإنما الإقناع والتربية والأسوة الطيبة والقدوة الصالحة.

• إن الإسلام جاء فوجد الرق[١]، فلم يُقِرّه كما فعلت الأديان الأخرى، ولكن تَفَرَّد بوضع التشريعات التي تقضي عليه، لقد اعتبر الإسلام الرِّق بمثابة الموت، واعتبر الحرية إحياءً وحياة، فعتق الرقبة، أي تحرير العبد، هو إخراج له من الموت الحُكْمي إلى الحياة، وهذا هو الذي جعل عتق الرقبة كفارة للقتل الخطأ، الذي أخرج به القاتل نفسًا من إطار الأحياء إلى عِدَاد الموتى، فكان عليه كفارة عن ذلك أن يُعيد الحياة إلى الرقيق بالعتق والتحرير، قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

• **هذه هي قيمة الحرية في الإسلام، ولكنَّ السؤال الملحَّ الذي يطرح نفسه هو: هل الحرية تعني الإطلاق من كل حدٍّ أو ضابط؟**

إن إقرار الإسلام للحرية لا يعني أنه أطلقها من كل حَدٍّ أو ضابِطٍ؛ لأن الحرية بهذا الشكل أقرب ما تكون إلى الفوضى

(١) راجع القضية بتفصيل في «موسوعة بيان الإسلام ـ الرد على الافتراءات والشبهات»، نخبة من العلماء، ط١ .- القاهرة: دار نهضة مصر، ٢٠١١م.

التي يثيرها الهوى والشهوة، ومن المعلوم أن الهوى يُدمِّر الإنسان أكثر مما يبنيه، ولذلك مُنِع من اتِّباعه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦].

إن الحرية غير المنضبطة التي تؤدي إلى الفوضى وتتبع الهوى، لا يمكن في ظلها أن يبني الإنسان ويُعمِّر، بل يكون الخراب والهدم، فالفوضى هي الأرض الخصبة لنشأة الإرهاب والتطرف والدمار.

والإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه مدني بطبعه، يعيش بين كثير من بني جنسه، فلم يُقرَّ لأحد بحرية دون آخر، ولذلك وضع ضوابط ضرورية تضمن حرية الجميع، وتتمثَّل الضوابط التي وضعها الإسلام فيما يأتي:

- ألا تؤدي حرية الفرد أو الجماعة إلى تهديد سلامة النظام العام وتقويض أركانه.
- ألا تفوِّت حقوقًا أعظم منها، وذلك بالنظر إلى قيمتها في ذاتها ونتائجها.
- ألا تؤدي حريته إلى الإضرار بحرية الآخرين؛ فالإنسان يظل حرًّا ما لم يمس حرية غيره، فإذا اقترب منها انقلب معنى الحرية إلى العدوان والظلم.

وبهذه الضوابط ندرك أن الإسلام لم يُقرَّ الحرية لفرد على حساب الجماعة، كما لم يثبتها لجماعة على حساب فرد، ولكنه وازن بينهما، فأعطى كلًّا منهما حقه وبَيَّنَ لكل منهما واجبه، فما كان له حق فليأخذه، وما كان عليه واجب فلا يُقصّر في أدائه.

هذه هي نظرة الإسلام الوسطية للحرية، الحرية المنضبطة، في مقابل نظرة الغرب، التي ادَّعت أن الإنسان هو سيد الكون، وأن حريته الشخصية لا تخضع لأية ضوابط ... إنها حرية الفوضى.

- **وسطية الإسلام في موقفه من المرأة والأسرة**

من مظاهر وسطية هذا الدين أنه جعل المرأة في نظام يتكامل مع الرجل، فالعلاقة بينهما مودة ورحمة وليست صراعًا وغَلَبَة، لقد أنصف الإسلام المرأة بعد أن عانت قبله أيَّما معاناة، حيث كانت ضحية كل نظام؛ فكانت عند الإغريق الشجرة المسمومة، وسلعة تُباع وتُشْتَرَى كأي متاع، وكانت عند الرومان كائنًا ليس له روح، وفي الصين قديمًا كان يحق للرجل أن يدفن زوجته حيَّة، وعند الهنود لا يحق للمرأة أن تعيش بعد وفاة زوجها، بل تُحْرَق معه، أما الفُرس فقد أباحوا الزواج بالمحرمات دون استثناء، وللزوج عندهم الحق في أن يحكم على زوجته بالموت!!

وعند العرب في الجاهلية، كانت تُدْفَن الطفلة حيَّة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى التُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩]؛ وجاء الإسلام منقذًا للمرأة ومستنكرًا لهذه الأفعال الشائنة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩].

كما رفع الإسلام مكانة المرأة، وأكرمها بما لم يكرِّمها به دين سواه؛ فالنساء في الإسلام شقائق الرجال، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**»(١).

ويتفرَّد الإسلام بأنه بَرَّأ حواء من تهمة إغواء آدم حتى أكل من الشجرة، وكان الخروج من الجنة، وبَيَّن الإسلام أن الشيطان هو المخطيء، قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ﴾ [البقرة: ٣٦].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب: في فضل أزواج النبي ﷺ، (٥/ ٧٠٩)، حديث رقم (٣٨٩٥)، وصححه الألباني في تعليقه على سنن الترمذي.

والمرأة في طفولتها لها حق الرضاعة والرعاية وإحسان التربية، وهي في ذلك الوقت قُرَّة العين، وثمرة الفؤاد لوالديها وإخوانها، وإذا كَبِرت فهي المُعزَّزة المُكرَّمة، التي يَغار عليها المجتمع المسلم، ويحوطها برعايته، فلا يرضى أن تمتد إليها أيد بسوء، ولا ألسنة بأذى، ولا أعين بخيانة.

وإذا تزوجت كان ذلك بكلمة الله، وميثاقه الغليظ، قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]؛ فتكون في بيت الزوج بأعزِّ جوار، وواجب على زوجها إكرامها، والإحسان إليها، وكف الأذى عنها.

وإذا كانت أمًّا كان برُّها مقرونًا بحق الله ﷻ، أما عقوقها والإساءة إليها فمقرون بالشرك بالله والفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وإذا كانت أختًا فهي التي أُمر المسلم بصلتها وإكرامها، وإذا كانت خالة كانت بمنزلة الأم في البر والصلة، وإذا كانت جدة أو كبيرة في السن زادت قيمتها لدى أولادها وأحفادها وجميع أقاربها؛ فلا يكاد يُردُّ لها طلب، ولا يُسَفَّه لها رأي.

هذه هي نظرة الإسلام الوسطية المنصفة للمرأة، احترم شخصيتها واستقلالها وعقلها، وأعطاها جميع الحقوق، مثلها مثل الرجل، كل هذا بعد أن أُهينت وظُلمت قبل مجيئه.

- **وسطية الإسلام في بناء الأسرة**

كذلك تتضح وسطية الإسلام في تشريعات الأسرة والعلاقة بين الزوجين، وبين الأبناء والآباء؛ فكانت صورة أخرى من صور وسطية التشريع الإسلامي الحكيم.

لقد راعى الإسلام هذا التماسك الذي يدعم حقوق كل فرد في كيان الأسرة، وذلك من خلال وضع معايير أخلاقية للعلاقة بين أفراد هذا الكيان:

فالعلاقة بين الزوجين تقوم على المودة والرحمة، وليست صراعًا بينهما؛ قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَفْرَكْ**[١] **مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ**»[٢].

- ومن واقعية الإسلام ووسطيته أنه سمح بالطلاق إذا استحالت العشرة بين الزوجين، بينما وقع الناس في الإفراط والتفريط؛ فكان أهل الجاهلية من العرب يُطلِّقون كيف شاءوا دون حدود أو ضوابط أو معالجة لما يترتب عليه الطلاق من أمور متعددة، وأما أهل الكتاب فكانوا لا يسمحون للرجل أن يُطلِّق أبدًا.

قال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ومع ذلك فقد جعل الله ﷻ الطلاق أبغض الحلال إليه، وجعله آخر الدواء - فآخر الدواء الكي - وليس تشهيًا

(١) لا يفرك: لا يبغض.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الرضاع، باب: الوصية بالنساء، حديث رقم (١٤٦٩).

أو تشفيًا، وهذا عين التوسُّط والحكمة.

والعلاقة بين الأبوين والأولاد قائمة بميزان الحقوق والواجبات، فكل حق يقابله واجب، فقد أوصى الله ﷻ بالإحسان إلى الوالدين وبرِّهما؛ قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨].

وأوصى ﷻ بطاعتهما ومصاحبتهما وإن كانا غير مؤمنين به، قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

وأوصى الآباء بحُسْن تربية الأبناء.

والعلاقة بين الأقارب والأرحام كذلك قائمة بميزان الحقوق والواجبات، فكل حق يقابله واجب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. وقال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

كل هذا في مقابل الغلو في قيمة الفرد الذي تتجه إليه الحياة الغربية على حساب كيان الأسرة.

- **وسطية الإسلام في الاختلاف**

يُعرَّف الاختلاف بأنه تباين الآراء، وهو مبني على تعدد وجهات النظر، فالاختلاف في حد ذاته ليس مشكلة؛ بل هو شيء فطري، لكن المشكلة تنشأ حين يتحوَّل هذا الاختلاف إلى صراع وصدام؛ فيحدث التنازع والشقاق.

- **الاختلاف سُنَّة من سُنَن الله الكونية.**

فالاختلاف سُنَّةٌ من سُنَن الحياة، وهو قيمة من القيم التي حرَص الإسلام على تأكيدها، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

ووسطية الإسلام في الاختلاف تظهر في حرص الإسلام على الاختلاف الإيجابي الذي يكون بمثابة العصف الذهني لعرض وجهات الرأي المختلفة لجوانب القضية في إطار الشورى التي أمر الله بها، وفي المقابل يُحذِّر الإسلام من التعصب لرأي الفرد ومُصادرة آراء الآخرين، كما ينهى عن الاختلاف السلبي الذي يفضي إلى العداوة والخلاف، بل إن

كُلَّ سلوك سلْبِي يرفضه الإسلام ويأباه.

فالاختلاف الإيجابي لغة في الحوار والتفاهم، ولقد أمر الله ﷻ نبيَّه ﷺ أن يقول للكافرين: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، بل إن ثوابت الثقافة الإسلامية تبيح مثل هذه الاختلافات الضرورية.

● ومن الحقائق القرآنية التي تلتقي مع العلم أن التعدد والتنوع سمة من سمات هذا الكون، إنها سنة من سنن الله في خلقه، الكون بأسره تسري في جنباته سمات الاختلاف والتنوع:

- **سبع سماوات ومن الأرض مثلهن.**
- **ملائكة وإنس وجن وحيوان ونبات.**
- **بر وبحر ونهر وجبل وسهل.**
- **أجناس شتى من كل شيء.**

قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، فالواحدية والأحدية لله تعالى وحده.

وجرت سنة الله في خلقه أن يكون الناس مختلفين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا

مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، فقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يعني أن ألوانهم مختلفة، ألسنتهم مختلفة، مشاربهم مختلفة.

وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، إن اللسان هو اللغة، وهو هنا رمز للثقافة، ألسنة مختلفة تعني ثقافات مختلفة لأمم شتى، وننبه هنا إلى أن كلمة (اللسان) قد وردت بمعنى (اللغة) في القرآن ثماني مرات.

• لكن هذا الاختلاف ليس دافعًا إلى التدابر والتقاطع والتخاصم، بل هو دافع للحوار واللقاء والتكامل، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

تدبَّروا كلمة ﴿لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ .. ما أعظمها، وما أعمق معانيها وظلالها!

فالتعارف: معرفة، أي علم.

والتعارف: معروف، أي خير.

والتعارف: عرفان بنعمة الله.

والتعارف: اعتراف بفضله ورحمته سبحانه.

والتعارف: أعراف، أي تقاليد وأخلاق وقيم.

والتعارف بوابة عظيمة للتعاون والتواصل.

إن تعارف الناس جزء من أحكام ديننا الحنيف، فهو أساس الترابط واللغة المُشترَكة، وهو الميراث الثقافي العظيم لهذه الأمة.

أفلا يكون هذا العالَم أفضل وأجمل وأكمل لو أننا تعارفنا وتواصلنا بالخير والبر والعطاء؟!

إننا بحاجة إلى الوعي بسُنَّة الاختلاف الإيجابي؛ كي نجني ثمار الأفكار المتعددة والعقول المتآزرة، فلا أحد بعد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يملك الحقيقة المطلقة، والحقيقة تحتاج إلى بحث مُتعمِّق وأرواح مخلصة تفتش عنها في كل شيء، وفقدان هذا الوعي يجعلنا نسخًا متشابهة خالية من الروح، قوالب متماثلة ميتة تعيد نسخ ذاتها في صور ممسوخة، وكلما تَقادَمَ الزمان عليها صارت باهتة غائمة لا هُوِيَّةَ لها ولا معنى.

• وتاريخ الإسلام يَمُدُّنا بالعديد من المواقف التي تدل على فقه الاختلاف الإيجابي، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة حين استشار أصحابه رضوان الله عليهم في معركة بدر: أين ينزل المسلمون؟ ثم نزل على رأي الحباب بن المنذر رضي الله عنه، في النزول قريبًا من ماء بدر، كما نزل على رأي سلمان الفارسي رضي الله عنه في غزوة الأحزاب حين أشار بحفر خندق حول المدينة، وحين استشار النبي ﷺ أصحابه في شأن أسرى بدر، وأخذ برأي أبي بكر الصديق رضي الله عنه في فداء الأسرى.

هكذا يرشد النبي الكريم ﷺ كل قائد في كل موقع ألا يَحْرِم نفسه ذكاء مَنْ حوله، يؤكد ذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

• ولقد علَّم القرآن المسلمين أن يجتهدوا وأن يستنبطوا وأن يسترشدوا بعلمائهم، يقول الله ﷻ في مُحْكَم آياته: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء: ٨٣].

فهذه دعوة صريحة إلى الاستنباط والاجتهاد، وللمجتهد المصيب أجران، وللمخطئ أجر واحد، لقول النبي ﷺ: «**إِذَا**

حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»[1].

والله ﷻ يقول: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

ولما أراد النبي ﷺ أن يبعث مُعاذًا إلى اليمن قال: «كَيفَ تقضي إِذا عرض لَك قَضَاء؟» قَالَ: «أَقْضي بِكِتَاب الله»، قَالَ: «فَإِن لم تَجدهُ في كتاب الله؟» قَالَ: «أَقْضي بِسُنَّة رَسُول الله ﷺ»، قَالَ: «فَإِن لم تَجدهُ في سُنَّة رَسُولَ الله ﷺ» قَالَ: «أجتهد رَأْيِي وَلَا آلو»، قَالَ: «فَضرب بِيَدِهِ في صَدْرِي»، وَقَالَ: «الْحَمد لله الذي وفَّق رَسُولَ رَسُولِ الله ﷺ لما يُرْضِي رَسُولَ الله»[2].

• وكان اختلاف أئمة المسلمين وفقهائهم اختلافًا مشتملًا على أدب جمٍّ، كما كان متعلقًا بالفروع دون الأصول،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، حديث رقم (٧٣٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الحدود، باب: بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، حديث رقم (١٧١٦).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، تتمة مسند الأنصار، حديث معاذ بن جبل، حديث رقم (٢٢٠٦١)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

لقد كان الاختلاف عند السلف - رضوان الله عليهم - عامل بناء وليس عامل هدم؛ لأن كلًّا منهم كان يَنْشُد الصواب أو الأفضل حتى ولو ظهر على يد غيره، وكانت آراء الأئمة ثمرات متعددة لشجرة واحدة هي شجرة الكتاب والسنة.

• ومن الأمثلة العملية التي تؤكد عودة نشأة الاختلاف في الأحكام الفقهية إلى عصر الصحابة - رضوان الله عليهم - في زمن النبي ﷺ: اختلافهم في زمنه ﷺ في حكم الصلاة في الطريق إلى بني قريظة، فقد روى البخاري عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب: «لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا في بَنِي قُرَيْظَةَ» فَأَدْرَكَ بَعْضَهُمُ العَصْرُ في الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: «لاَ نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا»، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «بَلْ نُصَلِّي، لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ»، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ»[1].

فلقد أقرَّ رسول الله ﷺ اختلافهم في فهم النص الواحد الذي سمعه الجميع منه، وهم أصحابه المخالطون له صباح مساء.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجمعة، باب: صلاة الطالب والمطلوب، حديث رقم (٩٤٦)، ومسلم في كتاب الجهاد، باب: المبادرة بالغزو، حديث رقم (١٧٧٠).

• أما بعض المعاصرين فلم يدركوا أن الاختلاف ضرورة حياتية وسُنَّة إلهية، وأن الاختلاف الإيجابي وسيلة لإظهار الحق، فالآراء يقدح بعضها بعضًا، والباطل نفسه قد يكون أداة لظهور الحق وانتصاره، والشاعر العربي يقول: «وبضدِّها تتميز الأشياء».

فلولا الظُّلْمَة ما أدركنا معنى النور، ولو استوت الخلفية والصورة لما رأينا الصورة، وإنما التباين الماثل بين الصورة والخلفية هو الذي يُبْرِز الصورة ويجعلنا نراها، وتلك هي سنة الله في خلقه: أبيض وأسود، حياة وموت، أمن وخوف، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨].

وفي مقابل الاختلاف المحمود هناك الاختلاف المذموم، ولقد حذَّرنا القرآن من اختلاف التنازع والتضاد، فقال ﷻ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ

ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فحين يكون الاختلاف اختلاف تضاد فإنه يُفضي إلى التنازع.

إن من أخطر ما أُصِيبَت به الأمة في الظروف الراهنة: التنازع والصراع، وهو داء يقصم الظهر، ويوهن القوة، ويُبدِّد طاقة الأمة مما يُغْري بها الأعداء.

اختلاف الأمم السابقة (اختلاف التنازع والتضاد)

حكى القرآن الكريم لنا ما وقع للأمم من قبلنا من تمزق وتشتت بسبب تنازعهم واختلافهم، وحذَّرنا من الانحدار إلى ما انحدروا إليه، فيصيبنا ما أصابهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٥-١٠٧].

فتُرى .. هل وَرِثْنا عِلَل هؤلاء الذين ضلوا وغضب الله عليهم، ورضينا بها عِوَضًا عن كتاب ربنا وسنة نبينا؟!

هل ورِثنا البغي بدلًا من أن نرث العلم والمعرفة ونلتزم بأخلاقهما؟!

إن الاختلاف والبغي وتفريق الدِّين من علل الأمم السابقة التي كانت سببًا في هلاكهم، وإنما بقيت قصصهم عِبْرَة لنا وعظة كي لا نقع فيما وقعوا فيه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

- **وسطية الإسلام في التعامل مع الآخر**

من أهم سمات وسطية الإسلام في تعامله مع الآخر أنه جعل الآخر جزءًا من نسيج الأمة، له ما لنا وعليه ما علينا.

فمن الحقائق الخالدة أن الإسلام قد استوعب الحضارات والديانات السابقة كلها وجاء بأحسن ما فيها، وجاء الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ مُصدِّقًا لما بين يديه من الرسل.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١].

وقال: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ

قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦].

وقال: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولقد سَنَّ رسول الله ﷺ ثلاث سُنَن جسَّدت رؤية الإسلام للآخر، وكيف أن الإسلام لا يكتفي بالاعتراف بالآخر، وإنما يجعله جزءًا من الأمة والدولة، له حقوق وعليه واجبات.

● **أُولى هذه السنن** ـ نموذجًا للعلاقة بالآخر اليهودي ـ هي الصحيفة التي وضعها رسول الله ﷺ عقب الهجرة[1]، والمحاور الأساسية لهذه الصحيفة تدور حول المساواة والعدالة بين الفرقاء في إطار الأمة الوليدة وبواكير الدولة الجديدة، كما تنص على أن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.

● **وثانية هذه السنن** ـ نموذجًا للعلاقة بالآخر النصراني ـ هي الوثيقة التي وضعها النبي ﷺ لنصارى نجران عهدًا بين

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة، (٢/ ١٠٦: ١٠٨).

الدولة الإسلامية الوليدة وبين النصارى، وفيها كتب رسول الله ﷺ: **«لِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهَا جِوَارُ الله وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النبي عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَأَرْضِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَغَائِبِهِمْ وَشَاهِدِهِمْ وَعَشِيرَتِهِمْ وَبِيَعِهِمْ وَأَلَا يُغَيِّرُوا مِمَّا كَانُوا عليه وَلَا يُغَيَّرُ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِهِمْ وَلَا مِلَّتِهِمْ، وَلَا يُغَيِّر أسقف من أسقفيته وَلَا رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ.....، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُمْ رَجُلٌ بِظُلْمِ آخَرَ، وَعَلَى مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ جِوَارُ الله ﷻ وذمة مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله ﷺ أَبَدًا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ، مَا نَصَحُوا وَأَصْلَحُوا فِيمَا عَلَيْهِمْ غَيْرَ مُثْقَلِينَ بِظُلْمٍ»**[1].

ويظهر لنا واضحًا من نص الصحيفة اعتراف الإسلام بالآخر، وقبوله، وتكريمه، والتعاون معه، واحترام خصوصياته[2].

- **وثالثة هذه السنن** ـ نموذجًا للعلاقة بأهل الديانات الوضعية ـ كانت على عهد عمر بن الخطاب ﷺ حين عرض

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، جماع أبواب مغازي رسول الله ﷺ، باب: وفد نجران وشهادة الأساقفة لنبينا ﷺ بأنه النبي الذي كانوا ينتظرونه، (٥/ ٣٨٩).

(٢) يمكن الرجوع لوثيقة المدينة مع اليهود ووثيقة نصارى نجران في: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله الحيدر آبادي الهندي، دار النفائس، بيروت، ط٦، ١٤٠٧هـ.

أمر معاملة أصحاب الديانات الوضعية على مستشاريه بالمسجد النبوي الشريف فأشار عليه عبد الرحمن بن عوف ﷺ قائلًا: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «**سُنُّوا بهم سُنَّة أهل الكتاب**»[1]. وعُومِلَ أهل الديانات الوضعية معاملة الكتابيين عبر تاريخ الحضارة الإسلامية.

وهناك مواقف لا تُحْصَى لتأكيد أن علاقة الإسلام بالآخر تقوم على السماحة والعدالة واحترام حقوقه.

من ذلك أن القرآن الكريم أكد أن اختلاف الدين لا يجوز أن يكون مَدْعاة للظلم أو التغابن، وأنه إذا كانت هنالك أطراف معادية وبيننا وبينها خصام، فذلك كله يجب إبعاده عن مقتضيات العدالة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: الزكاة، باب: جزية أهل الكتاب والمجوس، (١/ ٢٧٨)، حديث رقم (٤٢)، وضعفه الألباني في إرواء الغليل، (٥/ ٨٨)، برقم (١٢٤٨). وله شاهد في الصحيح، أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ لم يأخذ الجزية من المجوس «حَتَّى شَهِدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَخَذَهَا مِنْ مَجُوسِ هَجَرَ». أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجزية، باب: الجزية والموادعة مع أهل الحرب، حديث رقم (٣١٥٧).

ولطالما احتكم مسلمون وغير مسلمين إلى القضاء الإسلامي، فكانت العدالة تفرض نفسها دون تفرقة بين أطراف المتنازعين، يشهد لذلك عشرات المواقف العملية في تاريخ الحضارة الإسلامية، من ذلك موقف عمرو بن العاص ﷺ عندما كان واليًا على مصر في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ - واشتبك ابن له مع أحد المصريين، وأغراه سلطان أبيه فضرب الرجل، ومصر يومئذ حديثة عهد بالفتح، وكان المنتظر أن يستكين المضروب لابن القائد الفاتح الذي هزم أكبر دولة في الأرض ورمى بجيشها في البحر الأبيض (الرومان)، لكن المَجْنِي عليه كان يأْنس للإسلام وحُكْمه، فأقسم ليبلغن شكواه إلى أمير المؤمنين عمر ﷺ، لكن الولد الذي ضربه وجد في هذا حماقة، فقال له: افعل، فلن تضيرني شكواك، أنا ابن الأكرمين.

وبينما كان عمر بن الخطاب بين خاصته وعمرو بن العاص وابنه في مجلسه، والمدينة غاصة بالوفود في موسم الحج، تقدَّمَ المصري المظلوم، وقال لعمر: يا أمير المؤمنين إن هذا ـ وأشار إلى ابن عمرو ـ ضربني ظلمًا، ولما توعَّدته

بالشكوى إليك قال: افعل، فلن تضيرني شكواك، أنا ابن الأكرمين، فنظر عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص نظرة استنكار وقال له هذه الكلمة العظيمة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!» ثم توجَّه إلى الشاكي وناوله سوطه وقال له: «اضرب ابن الأكرمين كما ضربك».. لقد أنصف سيدنا عمر ﷺ الإسلام بهذا الحكم.

ومن المواقف العملية التي تؤكد أن الإسلام دين يقوم على السماحة في معاملة الآخر، وعلى احترام أواصر الإنسانية التي تجمع بين بني آدم قاطبة هذه المواقف:

- ما رواه البخاري عن جابر ﷺ قال: مرَّت بنا جنازة فقام لها النبي ﷺ وقمنا، فقلنا: يا رسول الله إنها جنازة يهودي، فقال ﷺ: «**أليست نفسًا؟!**»[1].

- وروى سفيان عن حماد بن أبي سليمان عن الشعبي أن أم الحارث بن أبي ربيعة ماتت وهي نصرانية فشيَّعها أصحاب النبي ﷺ[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجنائز، باب: من قام لجنازة يهودي، حديث رقم (١٣١٢). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجنائز، باب: القيام للجنازة، حديث رقم (٩٦١).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب: أهل الكتاب، باب: اتباع المسلم جنازة الكافر، (٦/ ٣٦)، حديث رقم (٩٩٢٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب: الجنائز، باب: في الرجل يموت له القرابة المشرك يحضره أم لا؟، (٣/ ٣٢)، حديث رقم (١١٨٤٢).

● وقد عظَّم الإسلام حرمة المعاهدين وأهل الذمة، فقد روى البخاري عن عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النبي ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**»(١). وقال ﷺ: «**أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢).

● وحدَّث زيد بن سعنة ـ وهو من أحبار اليهود ـ أنه أقرض النبي ﷺ قرضًا كان قد احتاج إليه يسد به خللًا في شئون نفر من المؤلَّفة قلوبهم، ثم رأى أن يذهب قبل ميعاد الوفاء المحدد للمطالبة بِدَيْنِه، وقال: أتيته ـ يعني رسول الله ﷺ ـ فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ وقلت له: يا محمد، ألا تقضيني حقي؟ فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب إلا مطلًا، ولقد كان لي بمخالطتكم علم!

---

(١) صحيح البخاري في صحيحه، كتاب: الجزية، باب: إثم من قتل معاهدًا بغير جرم، حديث رقم (٣١٦٦).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، (٣/ ١٠٧)، حديث رقم (٣٠٥٢)، وصححه الألباني في تعليقه على السنن.

فنظر إليَّ عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم رماني ببصره فقال: يا عدو الله! تقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتصنع به ما أرى؟! فوالذي نفسي بيده لولا ما أحذر فوته لضرب سيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إليَّ في سكون وتؤدة، فقال: «**يا عمر، أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا، أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن الطلب. اذهب به يا عمر فأعطه وزده عشرين صاعًا من تمر مكان ما رُعتَه**».

قال زيد: فذهب بي عمر، فأعطاني حقي وزادني عشرين صاعًا من تمر، فقلت: ما هذه الزيادة يا عمر؟ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما روعتك[1].(أى فى مقابل تخويفي لك)

إن ترويع يهودي آذى صاحب الرسالة ﷺ بلسانه ويده أَمْرٌ لم يقبله ﷺ، وأَمَرَ أن يُبدِّله مكانه عوضًا تطيب به نفسه.

والحق أن الإسلام يُوصد كل الأبواب أمام كل هؤلاء

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب: معرفة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب: ذكر إسلام زيد بن سعنة مولى رسول الله ﷺ، (٣/ ٧٠٠)، حديث رقم (٦٥٤٧). وابن حبان في صحيحه، كتاب: البر والإحسان، باب: الصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (١/ ٥٢١)، حديث رقم (٢٨٨). وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، برقم (١٣٤١).

الذين يستهينون بأقدار الآخرين وحقوقهم.

ومن ثَمَّ كان التعامل مع الآخر أنموذجًا بارزًا على وسطية هذا الدين، وعلامة مضيئة في تاريخه، وكيف لا وقد رسَّخ الإسلام لقاعدة مهمة، ألا وهي: (لهم ما لنا وعليهم ما علينا).

المبحث الرابع

التيسير ورفع الحرج منهج إسلامي

إن الله عَزَّوَجَلَّ وضع هذه الشريعة المباركة سمحة سهلة، وحبَّبها إلى الناس بذلك، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ولقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرشد أمته إلى الأخذ بالأيسر، وكان التيسير هَدْيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يسِّروا ولا تُعسِّروا**»(١).

وعن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، أَحَدُهُمَا أَيْسَرُ مِنَ الْآخَرِ، إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا، كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ»(٢)

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: العلم، باب: كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، حديث رقم (٦٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب: صفة النبي، حديث رقم (٣٥٦٠)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل، باب: مباعدته صلى الله عليه وسلم للآثام واختياره من المباح أسهله، وانتقامه لله عند انتهاك حرماته، حديث رقم: (٢٣٢٧).

• **لطيفة**: المُتدبِّر لأركان الإسلام الخمسة، التي بُنِيَ عليها الإسلام، والواردة في الحديث النبوي: «**بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**»(١) يرى بوضوح أن ثلاثة من هذه الأركان مرتبطة بالاستطاعة، وقد لا تتحقق ولا تُطْلَب إذا ما انتفت استطاعة الإنسان الخاصة بها.

فالحج لمن استطاع إليه سبيلًا، ومرة واحدة في العمر، والزكاة إذا بلغ المال النصاب ومَرَّ عليه عام، فإن لم يكن مال فلا زكاة، والصيام يؤجَّل أو يسقط وعنه فِدْيَة، إذا كان مرض أو سفر.

والركنان الآخران: الشهادة تُطْلَب ولو مرة في العمر، والصلاة هي المطلوبة على الدوام، وتُخَفَّف في السفر

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس، حديث رقم: (٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ: بني الإسلام على خمس، حديث رقم: (١٦).

بالقصر والجمع، وفي المرض من لم يستطع الصلاة قائمًا صلى قاعدًا ... وهكذا.

أليس هذا شاهدًا قويًّا على أن شريعة الإسلام هي شريعة اليُسر ورفع الحرج ودفع المشقة.

- **و الأخذ بالأيسر له فوائد وثمرات، أهمها:**

١- التمكُّن من مواصلة العبادة وإتمامها دون مشقة، وفي حديث عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أنها قالت: سُئِلَ النبي ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «**أدومها وإن قل**»، وقال: «**اكلفوا من الأعمال ما تطيقون**»[1].

ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى، قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٢- حب العبادة وحب الإقبال عليها ليسرها، هذا في مقابل أن عدم الأخذ بالأيسر يُوقِع الإنسان في المشقة، والمَلَل،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل، حديث رقم: (٦٤٦٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، حديث رقم: (٧٨٣).

وفي حديث عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: دخل عَليَّ رسول الله ﷺ وعندي امرأة، فقال: من هذه؟ فقلت: امرأة لا تنام، تصلي. قال ﷺ: «عليكم من العمل ما تُطيقون، فوالله، لا يَمَلُّ الله حتى تَمَلُّوا» وكان أحبَّ الدين إليه ما داوم عليه صاحبه[1].

٣- تحصيل أثر العبادة في النفس والأخلاق، من السكينة والطمأنينة وسعة الصدر، والتحلي بالأخلاق الحميدة.

• ولما كانت الوسطية من أبرز خصائص هذا الدين، وكان التيسير ورفع الحرج من أعظم مقاصده، كان من الطبيعي أن تأتى القواعد الفقهية والأصولية مُحقِّقة لسمة اليسر ورفع الحرج، وفيما يلي نعرض أهم هذه القواعد:

١ـ الأمور بمقاصدها:

وهذه القاعدة تعني أن الأعمال بالنوايا، والأدلة على هذه القاعدة كثيرة:

■ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ

(١) البخاري (٤٣)، ومسلم (٨٧٥) واللفظ له.

﴿ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

- وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].
- وقوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦٥].
- وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»(١).
- وعن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**مَن أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي بالليل، فغلبته عينه حتى يصبح، كُتِبَ له ما نوى، وكان نومه صدقة عليه من ربه**»(٢).

وهذه الآيات والأحاديث تدل دلالة واضحة على أن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: كيف كان بدء الوحي إلى النبي ﷺ، حديث رقم (١)، ومسلم في صحيحه: كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية**»، حديث رقم (١٩٠٧).

(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب: قيام الليل وتطوع النهار، باب: من أتى فراشه وهو ينوي القيام فنام، (٣/ ٢٥٨) حديث رقم (١٧٨٧)، وابن ماجه في سننه، كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء فيمن نام عن حزبه من الليل، (١/ ٤٢٦)، حديث رقم (١٣٤٤)، وصححه الألباني في تعليقه على سنن النسائي وابن ماجه.

النية هي محل الاعتبار عند الله؛ فهي العامل المؤثِّر في قبول العمل من عدمه، فإذا ما اتجه القلب نحو العمل، وتم عقد العزم والنية على ذلك، فإن العبد يحصل على الأجر والثواب، حتى وإن حِيْل بينه وبين ما نوى فعله.

٢ـ الأصل في الأشياء الإباحة

وتعني هذه القاعدة أن الله ﷻ خلق هذا العالم وكل ما فيه من أَجْل الإنسان الذي كرَّمه واصطفاه؛ ومن ثَم فلا يكون شيء منه حرامًا إلا ما حرَّم الله تعالى، ومن الأدلة على هذه القاعدة:

- قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].
- وقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].
- وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ [الأنعام: ١٤٥].
- وعن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرَّم فهو حرام، وما سكت**

عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئًا وتلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]»[(١)].

- وما حرَّمه الله ليس للحرمان، بل للحماية؛ فحرَّم الزنا لحماية النسل من الاختلاط حتى لا نكون مثل الحيوانات لا نعرف أَبًا ولا أُمًّا، وحماية للصحة وكذلك تحريم الخمر وسائر المُحرَّمات لحماية الإنسان من أضرار بالغة؛ فسبحان مَنْ هذا شرعه.

فلم يجعل الله التحريم أصلًا، بل جعل الإباحة هي الأصل، وهذا عين التيسير.

٣ـ درء المفاسد مُقدَّم على جلب المصالح

ومعنى هذه القاعدة أنه إذا حدث تعارض بين المفاسد والمصالح، وكانتا في منزلة واحدة ورُتبة واحدة، يُقدَّم درء المفاسد على جلب المصالح، ومن الأدلة على هذه القاعدة:

- قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ

(١) أخرجه الدارقطني في سننه، كتاب: الزكاة، باب: الحث على إخراج الصدقة وبيان قسمتها، (٣/ ٥٩)، حديث رقم (٢٠٦٦)، والحاكم في مستدركه، (٢/ ٤٠٦)، حديث رقم (٣٤١٩). وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٢٥٦).

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ﴾ [البقرة: ٢١٩]؛ فالله أعْلَمَ المسلمين بأن الخمر والميسر فيهما مصالح ومفاسد، ولكن مفاسدهما أكبر من منافعهما؛ فحرَّمهما.

- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ**»، فَقَالُوا: «مَا لَنَا بُدٌّ، إِنَّمَا هِي مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا»، قَالَ: «**فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا المَجَالِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا**»، قَالُوا: «وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟» قَالَ: «**غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ**»(١).

٤ ـ الضرورات تبيح المحظورات «خاصة بالمُحرَّمات»

ومعنى هذه القاعدة أن العذر يجوِّز الشيء الممنوع، فأكل الميتة مُحرَّم ولكن يصبح حلالًا إذا لم يوجد غيرها وخشي الإنسان على نفسه الموت جوعًا، ومن الأدلة على هذه القاعدة:

- قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِۗ﴾ [الأنعام: ١١٩].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المظالم والغصب، باب: أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات، حديث رقم (٢٤٦٥).

- وقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣].
- وقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣].

ففي هذه الآيات دليل على أن الله ﷻ أباح ما هو محظور محرَّم؛ وذلك في حالة الضرورة، ويُقْصَد بالضرورة هنا: كل ما هو ضروري ولا بد منه لبقاء الإنسان والحفاظ على حياته.

٥ـ المشقة تجلب التيسير «خاصة بالطاعات»

وتعني هذه القاعدة أن الأحكام التي ينشأ عن تطبيقها حرج على المُكلَّف، ومشقة في نفسه، أو ماله، فإن الشريعة تخفِّف عليه في تلك الأحكام؛ فالأصل في الأحكام الشرعية أن تُطبَّق ويُعْمَل بها وفق ما أمر الشارع، غير أن هذا التطبيق مُشترط بالاستطاعة والقدرة على التطبيق، ومتى عُدمت تلك الاستطاعة أو القدرة، فإن الأمر يُرْفَع كليًّا أو جزئيًّا، ومن أدلة هذه القاعدة:

- قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].
- وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].
- وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: «**إنما بُعثتم ميسّرين، ولم تبعثوا معسِّرين**»(١).
- وعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ حُرُمَاتٍ فَلا تَنْتَهِكُوهَا، وَسكت عَنْ أَشْيَاءَ رحمة بكم، غير نسيان فَلا تَبْحَثُوا عَنْهَا»(٢).

والمثال على التيسيرات والرُّخَص التي تكون لأصحاب الأعذار: الصلاة قاعدًا لمن لم يَسْتَطِعْ القيام، والتيمم لمن فقد الماء أو وجده وتعذَّر عنده استعماله، وكمن عجز عن الصيام لمرض أو سفر جاز له الفطر، وكمن فقد الطعام والشراب حتى أشرف على الموت حَلَّت له الميتة، ونحو ذلك كثير.

- **وبإمعان النظر في هذه القواعد التي أكدت يسر الإسلام وسماحته، وفي تلك النصوص التي وردت في الكتاب والسنة، وما جاء في معناها، يمكن استنباط جملة من الدلالات، منها ما يلي:**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الوضوء، باب: صب الماء على البول في المسجد، حديث رقم (٢٢٠).

(٢) أخرجه الدارقطني في سننه، كتاب: الرضاع، حديث رقم (٤٢)، وأخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب: الأطعمة، حديث رقم (٧١١٤)، وحسنه الألباني في شرح العقيدة الطحاوية، ص(٣٣٨).

١ - **أن اليسر والسماحة ونفي الحرج من أكبر مقاصد الشريعة**، فالتيسير ورفع الحرج أصل عظيم في الدين، وركن من أركان شريعة المسلمين شرَّفنا الله ﷻ به، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ولقد أجمع علماء الأمة على عدم وقوع المشقة غير المعتادة في التكاليف الشرعية، ولو كان واقعًا لحصل في الشريعة التناقض والاختلاف، وهي مُنزَّهة عنه.

٢ - **أن اليسر والسماحة من خصائص الشريعة الإسلامية**، وذلك:

- لأن الله ﷻ أراد للشريعة الإسلامية أن تكون شريعة عامة للناس كافة في كل مكان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فاقتضى ذلك أن يجعل الله فيها من اليسر والسماحة والتخفيف ما يلائم اختلاف الناس وطبائعهم، في مختلف الأماكن والأزمان، حتى يكون تنفيذها سهلًا ميسورًا.

- لأنها شريعة الفطرة، وفي فطرة الإنسان حب اليسر والرفق والسماحة، والنفور من الشدة، فإن طبيعة البشر

العادية تنفر من التشديد ولا تحتمله، ولا تصبر عليه، ولو صبر عليه بعضهم لم يصبر عليه عامّتهم، والشريعة إنما خاطبت الناس جميعًا، وقد ظهر للسماحة أثر عظيم في انتشار الإسلام، وتقبُّل الناس له على مَرِّ العصور.

- ولأن هذه الأمة أمة وَسَط في جميع المجالات، فاليسر صفة لازمة لها؛ فالسماحة في الشريعة تعني سهولة التكليف والمعاملة في اعتدال، فهي وَسَط بين التضييق والتساهل.

٣- أن اليسر والسماحة ورفع الحرج تشمل جميع أعمال المُكلَّف، الدينية منها والدنيوية، ما لم يخالف حكمًا شرعيًّا، فليس للمسلم أن يُشدِّد على نفسه بما لا يحتمله من العبادة، ولا أن يُضيِّق على نفسه في أمور الدنيا بزعم التقرُّب إلى الله تعالى بذلك، فليس التضييق على النفس في الحلال من القُرْبَة إلى الله تعالى في شيء؛ لأن وجهة الإسلام العامة هي التيسير، فمن يبغي الشدة والتعنت فإنما يعاند روح الإسلام.

٤- أن الأمر بالتيسير والسماحة يَعُمُّ جميع المُكلَّفين، كل فيما يخصه:

- **فالأئمة** مأمورون بتخفيف الصلاة؛ مراعاة لظروف

وأحوال مَنْ وراءهم من المأمومين؛ «**من صلَّى بالناس فليُخفِّف فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة**»[(١)].

- **والمُعلِّمون والمُرَبّون** مُطالَبون بالتيسير والرفق بالمُتعلِّمين، فينبغي أن يرفقوا بهم ويأخذوهم باللين واللطف لا بالشدة والعنف الذي يُنفِّرهم من الحق، ويُستأنس لذلك بما حكاه الله ﷻ عن موسى عليه السلام وهو في مقام التعلُّم من الخِضر عليه السلام: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣].

- **وكذلك الدعاة** ينبغي لهم أن يتحلوا بالرفق واللين والسماحة؛ حتى تُعْطِي دعوتُهم ثمارَها المرجوة كما أمر الله ﷻ موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ بقوله: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝٤٣ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤]، وكما قال ﷻ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

- كما يجب على **كل من تولَّى أمرًا من أمور المسلمين أن**

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب: الغضب فِي المَوْعِظَةِ وَالتَّعْلِيمِ، إِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ، حديث رقم (٩٠)، وهو في مسلم رقم (٤٦٦) بنحوٍ منه.

ييسر على من تحت يده ويرفق بهم، فقد قال النبي ﷺ: «**اللهم من ولى من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولى من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به**»[1].

- **والمُفتون** كذلك ليس لهم أن يفتوا بما فيه حرج وشدة على المستفتِي، ما دام يجد له مخرجًا شرعيًّا صحيحًا.

٥- وأخيرًا يجب التنبيه هنا على أنه ليس المراد بيسر الدين وسماحة الشريعة ترك العمل، أو تتبُّع مَواطن الرُّخَص، بعيدًا عن الغاية الحقيقية من الخضوع والطاعة لله وحده، والأخذ بالأسهل من الأمور تبعًا للهوى، مما قد يؤدي بصاحبه إلى الانسلاخ من الأحكام والتهاون في مسائل الحلال والحرام في المأكل والمشرب والمعاملات وغيرها، بدعوى يسر الدين وسماحته وعدم الحرج فيه، بل المراد تجنُّب المشقة غير المعتادة بعدم التشديد في العبادات بنية التورع، وتحاشي التعمق في المسائل المؤدّي إلى التشدد والغلو.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهى عن إدخال المشقة عليهم، حديث رقم (١٨٢٧).

من مظاهر التيسير ورفع الحرج في التشريع الإسلامي

(أ) مراعاة سنة التدرُّج في التشريع

من يُسر الإسلام وتيسيره على الناس أنه راعى معهم سنة التدرج فيما يُشرِّعه لهم، من واجب أو مُحرَّم؛ فنجد حين فرض الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة، فرضها على مراحل ودرجات حتى انتهت إلى صورتها الأخيرة .. والدرس الذي يبقى من هذه السنَّة هو الأخذ بها في التربية والعلاج، كما قال عمر بن عبد العزيز لما طلب منه ولده أن يأخذ الناس إلى الحق مرة واحدة فأجابه بالحكمة والبصيرة: «إني إن حملتهم على الحق مرة واحدة تركوه مرة واحدة».

■ وإليك بيان سنة التدرُّج في التشريع:

- فالصلاة فُرِضَت أول ما فُرِضَت ركعتين، ثم زِيدَت إلى ثلاث في المغرب، وإلى أربع في الظهر والعصر والعشاء.
- والصيام فُرِضَ أولًا على التخيير؛ من شاء صام ومن شاء أفطر وفَدَى، أي أطعم مسكينًا عن كل يوم يفطره، كما روى ذلك البخاري تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، ثم أصبح الصيام فرضًا في شهر رمضان فقط لازمًا على كل مسلم صحيح مقيم لا عذر له، ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

- والزكاة فُرضت أولًا بمكة مُطْلَقة غير مُحدَّدة ولا مُقيَّدة بنصاب، بل تُرِكَت لضمائر المؤمنين وحاجات الجماعة والأفراد، حتى فُرِضَت الزكاة ذات النصاب والمقادير في المدينة.

- والمُحرَّمات كذلك لم يأتِ تحريمها دفعة واحدة، فقد علم الله مدى سلطانها على الأنفس وتغلغلها في الحياة؛ سواء على مستوى الأفراد والجماعة، وأوضح مثال على ذلك تحريم الخمر؛ فقد جاء على مراحل معروفة في تاريخ التشريع الإسلامي، حتى نزلت الآية الحاسمة للتحريم في سورة المائدة، وهي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

ومثال آخر على التدرُّج في التحريم: تحريم الربا، وقد ورد تحريم الربا في عدة مواضع من القرآن الكريم، كلها تحدثت عن هذا الموضوع بالتدرج، حتى نزلت الآية الحاسمة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

وهكذا يتضح منهج التيسير في سنة التدرُّج في التشريع عند تحريم شيء اعتاد عليه الناس، وأيضًا التدرج في الفرائض التي فرضها الله على عباده.

(ب) مظاهر التيسير في تشريع العبادات

(١) الطهارة

- الأصل في الأشياء الطهارة

من سماحة الإسلام ويُسْره أنه جعل الأصل في الأشياء الطهارة والإباحة؛ حتى لا يقع المسلم في المشقة والحرج، فالأصل في الماء أنه طاهر مثل: ماء البحر والأودية والأنهار والآبار، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ الماءَ طَهُورٌ لَا يُنَجِّسُهُ شَيءٌ»[1] إلا أن يتغيَّر

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الطهارة، باب: الماء لا يجنب، (١/ ١٨)، حديث رقم (٦٨)، والترمذي في سننه، أبواب الطهارة، باب: ما جاء أن الماء لا ينجسه شيء، (١/ ٩)، حديث رقم (٦٦)، والنسائي في سننه، كتاب: المياه، (١/ ١٧٣)، حديث رقم (٣٢٥)، وصححه الألباني في تعليقه على سنن أبي داود.

ريحه، أو طعمه، أو لونه، بنجاسة تَحْدُث فيه، والأصل في الأرض أنها طاهرة، لقوله ﷺ: «**جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»[١].

ومن سماحة الإسلام أنه شرَّع الطهارة على أكثر من صفة، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه توضأ فغسل أعضاء الوضوء مرة مرة، ومرتين مرتين، وثلاثًا ثلاثًا، وكل هذا سُنَّة، والأفضل أن يُنوِّع المسلم بينها، إحياءً وتطبيقًا للسنة، كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ توضأ مرة مرة[٢] وفي حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه أنه ﷺ توضأ مرتين مرتين[٣]، وثبت في الصحيحين أنه ﷺ توضأ ثلاثًا ثلاثًا[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: قول النبي ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»، حديث رقم (٤٣٨).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الطهارة، باب: ما جاء في الوضوء مرة مرة، (١/ ٦٠)، حديث رقم (٤٢)، وصححه الألباني في تعليقه على السنن.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الوضوء، باب: الوضوء مرتين مرتين، حديث رقم (١٥٨).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: فضل الوضوء والصلاة عقبه، حديث رقم (٢٣٠).

- التيمُّم في حالة عدم وجود الماء

ومن يُسْر الإسلام أنه شرَّع التيمم في حالة عدم وجود الماء في الحضر أو السفر؛ أو إذا خاف باستعمال الماء الضرر بمرض أو تأخُّر بُرْئه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

أو إذا عجز عن استعمال الماء، كمن لا يستطيع الحركة، وليس عنده مَنْ يُوَضِّئه، وخاف خروج الوقت، ونحو ذلك لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

- المسح على الخفين:

ومن السماحة واليسر وَضْعُ ما يناسب من الأحكام لكل حالة، مما يُحقِّق المصلحة وينفي المشقة ويرفع الحرج، فشرَّع المسح على الخفين ونحوِهما، والمسح على الرأس، فعن عمرو بن أمية رضي الله عنه قال: «رَأَيْتُ النبي ﷺ يَمْسَحُ عَلَى عِمَامَتِهِ وَخُفَّيْهِ»[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الوضوء، باب: المسح على الخفين، حديث رقم (٢٠٥).

وكذلك على الجبيرة أو جرح يضره الغسل، كما في قصة الرجل الذي أصابته شجَّة في رأسه فأشار عليه أصحابه بالغسل فاغتسل فمات، فقال النبي ﷺ: «**قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ، أَلَا سَأَلُوا إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ أَوْ يَعْصِبَ عَلَى جُرْحِهِ ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهِ وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ**»(١)، وذلك تخفيفًا من الله تعالى على عباده، ودفعًا للحرج عنهم.

ومن يسره ورحمته أنه زاد مدة المسح للمسافر على المُقيم ضعفين؛ مراعاة لحاله وظروفه، فشرَّع لكلٍّ ما يناسبه، فمدة المسح للمقيم يوم وليلة، وللمسافر ثلاثة أيام بلياليهن، فعن علي رضي الله عنه قال: «جعل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر، ويومًا وليلة للمُقيم»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الطهارة، باب: في المجروح يتيمم، حديث رقم (٣٣٦)، والدارقطني في سننه، كتاب: الطهارة، باب: جواز التيمم لصاحب الجراح مع استعمال الماء وتعصيب الجرح، (١/ ٣٤٩)، حديث رقم (٧٢٩). وحسنه الألباني في تعليقه على سنن أبي داود دون قوله: «إنما كان يكفيه».

(٢) أخرجه مسلم: كتاب: الطهارة، باب: التوقيت في المسح على الخفين، حديث رقم (٢٧٦).

(٢) الصلاة

وفيما يخص تشريع الصلاة نجد قَصْر الصلاة للمسافر، وصلاة المريض، وصلاة الخائف.. إلخ، وكل هذا من باب التيسير ورفع الحرج في تشريع الصلاة، ويتضح ذلك فيما يأتي:

- صلاة المريض:

إن الصلاة لا تُتْرَك أبدًا، فالمريض يلزمه أن يؤدي الصلاة قائمًا، وإن احتاج إلى الاعتماد على عصا ونحوها في قيامه فلا بأس بذلك، وقد أجمع العلماء على أن من عجز عن القيام في الفريضة صلاها قاعدًا، ولا إعادة عليه، ولا ينقص ثوابه، وتكون هيئة قعوده حسب ما يسهل عليه.

أخرج البخاري من حديث عمران بن حصين ﷺ قال: «كانت بي بواسير»، فسألت النبي ﷺ فقال: «**صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ**»[1].

- قصر الصلاة للمسافر:

شرع للمسافر قصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: أبواب تقصير الصلاة، باب: إذا لم يطق قاعدًا صلى على جنب، حديث رقم (١١١٧).

﴿ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٠١]، وقد تواترت الأخبار أن رسولَ الله ﷺ كان يقصُر في أسفاره.

- **الجمع بين الصلاتين:**

ويجوز الجمع فيها بين صلاتي الظهر والعصر، وكذلك بين المغرب والعشاء.

فى السفر: يجوز للمسافر أن يجمع بين صلاتي الظهر والعصر، وكذلك يجمع بين المغرب والعشاء جمع تقديم أو تأخير وكذلك فى الخوف والمطر والمرض.

(٣) الزكاة

- وفيما يتعلق بالزكاة نجد أنها مُقنَّنة بأنصبة ومقادير وشروط، فلم تُفْرَض الزكاة إلا بقَدْرٍ قليل، وبعد بلوغ نصاب معين، وبشرط مرور سنة، وإذا أخذ ما وهب سقط ما وجب، يعني إذا لم يكن مال فلا زكاة.
- وكلما زادت حركة الإنسان وسعيه في إنماء المال قَلَّ مقدار الزكاة في ماله، فمثلًا الأرض التي تُسْقى بماء المطر فيها العُشْر، والتي تُسْقى بآلة ونفقات فيها نصف العشر، وفي عروض التجارة التي تحتاج إلى حركة أكثر فيها رُبْع العُشْر؛

ذلك لأن الشارع الحكيم يريد للناس الحركة والسعي واستثمار الأموال، والشارع حين كفل هذا الحق للفقراء، فإنما يحمي به الفقراء والأغنياء على حدٍّ سواء حيث يحقق الإسلام العدالة الاجتماعية بهذا الأسلوب الآمن «الزكاة».

وقد حدَّد الشارع هذا الحق حتى لا نزهد في العطاء، خاصة في الزكاة.

- ومن ثَمَّ تظهر وسطية الإسلام ويسره في جانب تشريع الزكاة؛ حيث اعترف بملكية الفرد للمال، ولكنه يملكه استخلافًا من الله ﷻ؛ لكي يؤدي رسالته في الحياة: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

كما يبدو المنهاج الوسط في الإقرار بحق الفرد في المال، إلى جانب الاعتراف بأن للجماعة فيه حقًّا مُقدَّرًا أو مُحدَّدًا، يُخصَّص لفقراء الجماعة، وهو الزكاة: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]. ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

وقد أُضِيفَ المال في القرآن الكريم إلى صاحبه، كما في الآيتين السابقتين، وأُضِيفَ مُلْك السماوات والأرض وما فيهن إلى الله ﷻ، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠]، كما أضيف المال بخصوصه إليه تعالى، قال سبحانه: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، والإسلام لا يمنع المسلم من امتلاك الثروات الطائلة بشرط أن يأتي بالمال من حلال وأن يصرفه في حلال، وألا ينسى حق عباد الله في هذا المال، وألا يسيطر حب المال على قلبه، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وهذا المنهاج في النظر إلى المال، والهدف منه، وكيفية اكتسابه، وكيفية إنفاقه، هو المنهاج الأكمل والأعدل في تنظيم أمر مهم وجوهري في حياة الإنسان، وهو يتفق مع فطرة الإنسان وغريزته في حب التملُّك، ويوازن بينها وبين حق المجتمع في مال الله، وأن المال ـ ولو كان مملوكًا للفرد ـ فيه حقوق لله وللجماعة.

ذلك هو المنهاج الأمثل الذي يحفظ مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع، ويوازن بينهما موازنة عزَّت على أصحاب المذاهب والنظريات البشرية قديمًا وحديثًا.

(٤) الصيام

فريضة الصيام من أعظم الفرائض التي تربي المسلم على الصبر، وقوة الإرادة، والتحكُّم في نزوات النفس البشرية وشهواتها، ويكفي في الصيام أن الله تعالى علَّله بالتقوى في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

ومظاهر التيسير في الصيام كثيرة؛ منها:

المظهر الأول: الفطر في المرض والسفر:

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]؛ فالفطر في المرض والسفر رخصة، وفي الحديث النبوي: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النبي ﷺ قَالَ: **«إِنَّ الله يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ، كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ»**[1].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (٥٨٦٦).

والله ﷻ يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

المظهر الثاني: تأخير السحور وتعجيل الفطر:

عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً**»(١) وعن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**فَصْلُ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَكْلَةُ السَّحَرِ**»(٢). وقال ﷺ: «**لا يزال الناس بخير ما عجَّلوا الفطر**»(٣).

المظهر الثالث: النهي عن الوصال:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالْوِصَالَ**» قَالُوا: «فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ»، قَالَ:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الصوم، باب: بركة السحور من غير إيجاب، حديث رقم (١٩٢٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الصيام، باب: فضل السحور وتأكيد استحبابه، واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر، حديث رقم (١٠٩٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الصوم، باب: تعجيل الإفطار، حديث رقم (١٩٥٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الصيام، باب: فضل السحور وتأكيد استحبابه، حديث رقم (١٠٩٨).

«إِنَّكُمْ لَسْتُمْ فِي ذَلِكَ مِثْلِي، إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي، فَاكْلَفُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ»[١].

المظهر الرابع: الصائم والجنابة:

عن عائشة وأم سلمة: «أن رسول الله ﷺ كان يدركه الفجر وهو جنب من أهله ثم يغتسل ويصوم»[٢].

المظهر الخامس: الصيام والنسيان:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَسِيَ وَهُوَ صَائِمٌ فَأَكَلَ أَوْ شَرِبَ، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ، فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وَسَقَاهُ»[٣].

(٥) الحـــج

الحج عبادة مالية بدنية، وهو يجمع بين مشقات كثيرة لا نجدها في أية عبادة أخرى، ومن هنا جاء التشريع الإسلامي بالتيسير مُراعِيًا للفطرة البشرية وطاقة الإنسان وقدرته، وذلك في الأمور الآتية:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الصيام، باب: النهى عن الوصال في الصوم، حديث رقم (١١٠٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الصوم، باب: الصائم يصبح جنبًا، حديث رقم (١٩٢٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الصيام، باب: أكل الناسى وشربه وجماعه لا يفطر، حديث رقم (١١٥٥).

- **أن الحج مرة واحدة في العمر:**

فعن أبي هريرة ﷺ قال: خَطَبَنَا رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ الله عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا**»، فَقَالَ رَجُلٌ: «أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟» فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ**»، ثُمَّ قَالَ: «**ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيءٍ فَدَعُوهُ**»[1].

- **أن الحج لا يكون إلا على القادر المستطيع:**

لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، والاستطاعة تتحقق بأمرين: بالزاد، والراحلة[2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر، حديث رقم: (١٣٣٧).

(٢) الراحلة: الوسيلة الموصلة إلى البيت الحرام لأداء النسك، والزاد: النفقة الحلال الطيبة طيلة فترة الحج.

- **ومن مظاهر التيسير في الحج:**
  - جواز الحج عن الغير.
  - وأن يطوف المريض راكبًا.
  - وقصر الصلاة وجمعها بعرفة والمزدلفة.
  - ورفع الحرج عنْ من قدَّمَ بعض الواجبات على بعض في الحج فى يوم النحر، كالرمي والنحر والحلق أو التقصير، وغيرها.
  - ومشروعية الفدية، والتمتع بالعمرة إلى الحج.

فكل هذا يدل دلالة واضحة على يسر الإسلام ومراعاته لطاقة المسلم[1].

ومن ثَمَّ فإن المتتبع لكل عبادة من العبادات يرى أن التيسير واضحٌ فيها ملازمٌ لها.

(جـ) في أداء الكفّارات

شُرِعت الكفارات رحمة من الله بعباده، لتكفير خطاياهم في الدنيا؛ فقد يقع المسلم في أخطاء تتعارض مع أوامر الشريعة؛ لذلك وجدت الكفارات لكي يَجْبُر بها المسلم ما

(١) راجع بتفصيل: فقه تيسير الحج، د. محمد محمد داود، دار المنار، ص ٢١.

فعله من أخطاء، فيعفو عنه الله ويصفح.

والكفارات المعهودة في الشرع خمسة أنواع؛ وهي: كفارة اليمين، وكفارة الإفطار، وكفارة الحلْق، وكفارة القتل، وكفارة الظِّهار، وكلها راعت فيها الشريعة على المُكلَّف التيسير في أداء الكفّارة؛ فينتقل المُكلَّف من العتق إلى الصيام، أو من الصيام إلى الإطعام، على حسب قدرته وطاقته.

(د) مظاهر التيسير في الفتوى

الاختلاف في الفتوى للتوسيع على المكلَّفين

أشار العلماء المحقِّقون إلى حِكَم بليغةٍ في اختلاف فتوى العلماء وآرائهم؛ من ذلك قول الإمام الزركشي ـ رحمه الله ـ: «**اعلم أن الله لم يُنَصِّبْ على جميع الأحكام الشرعية أدلة قاطعة، بل جعلها ظنية قصدًا للتوسيع على المكلَّفين؛ لئلا ينحصروا في مذهب واحد لقيام الدليل القاطع عليه**»[1].

فالشاب له فتوى، والمريض له فتوى، والمرأة لها فتوى، والمسافر له فتوى، والمضطر له فتوى وهكذا، وابن القيم يؤكد في كتابه «إعلام الموقعين عن رب العالمين» أن الفتوى المحقِّقة للمصلحة شرع الله.

---

(١) تسهيل الوصول، المحلاوي، ص٢٤٠.

ومن الأمثلة العملية التي تؤكد عودة نشأة الاختلاف في الأحكام الفقهية إلى عصر الصحابة ﷺ في زمن النبي ﷺ: اختلافهم في زمنه ﷺ في حكم الصلاة في الطريق إلى بني قريظة؛ فقد روى البخاري عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب: «**لا يُصلِّيَنَّ أحد العصر إلا في بني قريظة**»(١)، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: «لا نصلي حتى نأتيها»، وقال بعضهم: «بل نصلي، لم يرد منا ذلك»، فذُكِر ذلك للنبي ﷺ، فلم يُعنِّف واحدًا منهم، فلقد أقرَّ رسول الله ﷺ خلافهم في فهم النص الواحد الذي سمعه الجميع منه، وهم أصحابه المخالطون له صباح مساء.

ومن النماذج الواضحة لما اختلف فيه الصحابة ـ وهو قليل بالنسبة لما اتفقوا فيه ـ أن أبا بكر ﷺ كان يسوِّي بين المسلمين فيما يأخذون من بيت المال، لا يفرق بين من سبق إلى الإسلام وغيره، وكان يقول: إنما أسلموا وأُجُورهم على الله،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: أبواب صلاة الخوف، باب: صلاة الطالب والمطلوب، حديث رقم: (٩٤٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب: المبادرة بالغزو وتقديم أهم الأمرين المتعارضين، حديث رقم: (١٧٧٠)، بلفظ آخر: وهو: «أَنْ لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الظُّهْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ».

وإنما الدنيا بلاغ، وخير البلاغ أوسعه، فكان ﷺ يعطيهم ما به يحفظون مصالحهم، الكل في ذلك سواء.

ولما آلت الخلافة إلى عمر ﷺ فاضل بينهم؛ مراعيًا سَبْق الإسلام، وما قدَّموه من خدمات لهذا الدين، وقال: «لا أجعل من ترك داره وماله وهاجر إلى الله ورسوله كمن أسلم كرهًا»؛ فأبو بكر يريد العدل، وعمر يريد العدل، ويختلف رأيهما فيما يحقِّق هذه العدالة، فيجيء الاختلاف في الحُكْم تبعًا لاختلافهما في الرأي.

لا تتعصَّب لمذهبك:

إن أئمة الدين والفقه لم يُلزموا الأخذ بمذاهبهم والتزام العمل بها، بل كانوا لا يرون غضاضة من هذا الاختلاف، وكان الواحد منهم إذا رأي المصلحة في رأي غيره لا يأنف أن يرجع إليها.

فالإمام الشافعي لما انتقل من العراق إلى مصر عاد فأنشأ مذهبًا جديدًا وترك مذهبه الأول، إلا بضعًا وعشرين مسألة منه.

والإمام مالك، لم يرضَ للخليفة أبي جعفر المنصور أن يجبر جميع المسلمين على العمل بكتابه «الموطَّأ»، رغم شدة

تحرِّي الإمام مالك في روايته له، وموافقة علماء الدين عليه، وعلَّل الإمام مالك رَفْضَه هذا بقوله: «إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرَّقوا في البلاد، وقد يكون عند بعضهم من الأحاديث ما لم يبلغني، ولو بلغني لغيَّرت شيئًا مما دونته».

وكان بعضهم يعمل باجتهاد غيره ترخُّصًا، أو موافقة لجماعة المسلمين، من هذا ما رُوِي عن الإمام أحمد؛ فقد كان الجمهور يرى أن الحجامة أو الفَصْد تنقض الوضوء، فَسُئِل عمَّن رأى الإمام احتجم وقام إلى الصلاة ولم يتوضأ، هل يصلي الإمام أحمد خلفه؟ فقال: «كيف لا أصلي خلف مالك وسعيد بن المسيب؟».

وكان أبو حنيفة وأصحابه يرون الوضوء من خروج الدم، ولكن أبا يوسف ـ صاحب أبي حنيفة ـ رأى هارون الرشيد احتجم، وكان مالك أفتى هارون بأنه لا وضوء عليه إذا هو احتجم، فصلَّى أبو يوسف خَلْفه ولم يُعِد الصلاة.

ورُوِى أن الشافعي ترك القنوت في الصبح لـمَّا صلَّى مع جماعة من الحنفية في مسجد إمامهم ببغداد. قال الحنفية: «فعل ذلك أدبًا مع الإمام». وقال الشافعية: «بل تغيَّر اجتهاده في ذلك الوقت».

وقال كاتب مُقدِّمة «المغْني»[١]: الظاهر مما تقدَّم أنه لم يُرِد أن يخالف جماعة من المسلمين مخالفة عمليَّة في مسألة اجتهادية غير قطعية، فإن اختلاف الظواهر من أسباب اختلاف البواطن.

وفي الحديث: «**عباد الله، لتُسَوُّنَّ صفوفكم، أو ليخالِفَنَّ الله بين وجوهكم**»[٢].

بهذه الروح الطيبة، وبهذا التسامح حمل أئمة السلف راية الدين دون انتصار لهوى، أو تعصُّب لرأي؛ لذا حفظهم الله ﷻ، وصانهم من التحاسد والتخاصم، وانتفعت الأمة بعلمهم وبأعمالهم، فَرَضِى الله عنهم، وجزاهم الله عنا وعن الإسلام خير الجزاء.

---

(١) المغني والشرح الكبير، ابن قدامة، المقدمة، ص٢١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأذان، باب: تسوية الصفوف عند الإقامة وبعدها، حديث رقم: (٧١٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: تسوية الصفوف وإقامتها، وفضل الأول فالأول منها، والازدحام على الصف الأول والمسابقة إليها، وتقديم أولي الفضل وتقريبهم من الإمام، حديث رقم: (٤٣٦).

سؤال واحد وإجابات متعددة

إن الناس تتفاوت قوتهم وطاقاتهم؛ ولذلك كان النبي ﷺ يجيب عن السؤال الواحد بإجابات متعددة؛ رعاية لحال السائل وظروفه، فحين سأل شاب جَلْدٌ قَوِيٌّ النبي ﷺ عن أفضل الأعمال وأحبها إلى الله أجابه ﷺ بالجهاد في سبيل الله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ: «أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟» فَقَالَ: «**إِيمَانٌ بِالله وَرَسُولِهِ**». قِيلَ: «ثُمَّ مَاذَا؟» قَالَ: «**الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**» قِيلَ: «ثُمَّ مَاذَا؟» قَالَ: «**حَجٌّ مَبْرُورٌ**»(١).

وأجاب من يقوم على رعاية أبويه لكبرهما بأن جهاده في البر والإحسان لوالديه، فقد جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النبي ﷺ، فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الجِهَادِ، فَقَالَ: «**أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟**»، قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «**فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ**»(٢).

ويُفْتَى الشيخ الهَرِم الذي لا يستطيع الجهاد في ساحة الحرب بأن أفضل العمل له هو ذكر الله تعالى، فيُرْوَى أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ: «إِنَّ شَرَائِعَ الْاِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: بَابُ مَنْ قَالَ إِنَّ الإِيمَانَ هُوَ العَمَلُ، حديث رقم (٢٦).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: الجهاد بإذن الأبوين، حديث رقم (٣٠٠٤).

عَلَيَّ، فَأَنْبِئْنِي مِنْهَا بِشَـيءٍ أَتَشَبَّثْ بِـهِ» قَـالَ: «**لَا يَـزَالُ لِسَـانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ الله ﷻ**»(١).

• في ليلة باردة، في غزوة ذات السلاسل، احـتلم عمـرو بن العاص رضي الله عنه وأشفق على نفسه إن اغتسل أن يهلك، فتيمَّم ثم صلَّى الصبح بأصحابه، فـذكروا ذلـك لرسـول الله ﷺ، فقـال النبي ﷺ: «**يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنـب؟**» فقـال عمرو: خشيت على نفسي، وقـد قـال الله تعـالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]. فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا(٢).

• وقد جاء سائل في الحج يقول: يا رسول الله، لم أشعر، فنحرت قبل أن أرمي، فقال النبـي ﷺ: «**ارم ولا حـرج**»، فـما سُئل النبي ﷺ يومئذ عن شيء قُدِّم ولا أُخِّر؛ إلا قـال: «**افعـل ولا حرج**»(٣).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الأدب، بَاب: فَضْلِ الذِّكْرِ، حديث رقم (٣٧٩٣). وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التيمم، باب: إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش تيمم، (١/ ٥٤١)، معلقًا.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: العلـم، بـاب: الفتيـا وهـو واقـف عـلى الدابـة وغيرها، حديث رقم (٨٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الحج، باب: من حلق قبـل النحر أو نحر قبل الرمى، حديث رقم (٣٢١٦).

• رأي كَثيرُ بن جُمْهَانَ[1] سيدنا عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا يمشي في المَسْعَى بين الصفا والمروة، فقال له: «أتمشي في السعي بين الصفا والمروة؟». فقال له ابن عمر: «لئن سعيت فقد رأيت رسول الله ﷺ يسعى، ولئن مشيت لقد رأيت رسول الله ﷺ يمشي، وأنا شيخ كبير»[2].

• أخذ المشركون عمار بن ياسر رضي الله عنه فلم يتركوه حتى نال من رسول الله ﷺ وذكر آلهتهم بخير. فلما أتى النبي ﷺ قال له: «**ما وراءك يا عمار؟**».

قال عمار: «شرٌّ يا رسول الله، ما تركوني حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير».

قال النبي ﷺ: «**كيف تجد قلبك؟**».

قال عمار: «مطمئن بالإيمان».

---

(١) كثير بن جمهان السلمى – ويقال: الأسلمى – أبو جعفر الكوفى، روى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأبى عياض، وأبى هريرة، وروى عنه عطاء بن السائب، وليث بن أبى سليم، قال أبو حاتم: شيخ يُكتب حديثه، وذكره ابن حبان فى الثقات، وروى له أصحاب السنن حديثًا واحدًا فى المشى بين الصفا والمروة، وروى له أبو جعفر الطحاوى.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الحج، باب: ما جاء في السعى بين الصفا والمروة، (٣/ ٢٠٨)، حديث رقم (٨٦٤). وصححه الألباني في تعليقه على السنن.

قال النبي ﷺ: «**فإن عادوا فَعُد**»[١].

وفي هذا الموقف أنزل الله قرآنًا يُتْلَى إلى يوم القيامة لتظل الموعظة حية والدرس باقيًا للأمة شاهدًا على سماحة الإسلام ويسره، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

ويُعبِّر رسول الله ﷺ بأن ما ذهب إليه عمار من دفع الأذى والضرر عن نفسه لون من الرشد في الفهم، فقد أخرج الترمذي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما خُيِّر عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما**»[٢].

• وقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يسأله عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**خمس صلوات في اليوم والليلة**، فقال: «هل عليَّ غيرها؟» قال: «**لا، إلا أن تَطَوَّع**»، قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه، (٢/ ٣٨٩)، حديث رقم: (٣٣٦٢)، وعلق عليه الذهبي بأنه: على شرط البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: أبواب المناقب، باب: مناقب عمار بن ياسر وكنيته أبو اليقظان ﷺ، (٥/ ٦٦٨)، حديث رقم (٣٧٩٩)، وصححه الألباني في تعليقه على سنن الترمذي.

«**وصيام رمضان**»، قال: «هل عليَّ غيره؟» قال: «**لا، إلا أن تطوع**»، وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة. قال: «هل عليَّ غيرها؟» قال: «**لا، إلا أن تطوع**» فأدبر الرجل، وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص. قال رسول الله ﷺ: «**أفلح إن صدق**»[1].

وهذا الموقف يؤكد أن المنهج الإسلامي يقوم على التيسير ورفع الحرج، وعدم التكليف بما لا يُستطاع.

فالتكاليف في الإسلام درجات متفاوتة، وقد أوضح النبي ﷺ للسائل الحد الأدنى للتكاليف بعد الإيمان، وهو أداء الفرائض المفروضة على كل مسلم ومسلمة، وأعلى منه التطوع بالنوافل، ثم المزيد من البر والإحسان، وهناك منازل شتى لأهل العمل وأصحاب العزائم والهمم يتنافسون ويتسابقون في إدراكها وتحصيل خيرها.

لكن النبي ﷺ ـ وهو المعلم الهادي ـ أرشد سائله إلى الحد الأدنى؛ تيسيرًا على أمته، وأكَّد هذا في مواقف أخرى، فعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله فرض**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: الزكاة من الإسلام، حديث رقم: (٤٦).

فرائض فلا تضيعوها، وحرَّم حُرُماتٍ فلا تنتهكوها، وحدَّ حدودًا فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان، فلا تسألوا عنها»[1].

وقال عبيد بن عمير ﷺ[2]: «إن الله أحلَّ وحرَّم، فما أحلَّ فأحِلُّوه، وما حرَّم فاجتنبوه، وترك بين ذلك أشياء لم يحلِّلْها ولم يُحَرِّمْها، فذلك عفو من الله، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠١]»[3].

نخلص مما سبق إلى أن التيسير ورفع الحرج سمةٌ من سمات هذه الأمة، وخصيصة من خصائصها، وأن التشديد والغلو لا يُعبِّر عن تقوى ولا عن علم راسخ، بل يعبر عن ضيق أفق، وقلة فهم وعلم.

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه، كتاب: الرضاع، حديث رقم (٤٢)، وأخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب: الأطعمة، حديث رقم (٧١١٤)، وحسنه الألباني في شرح العقيدة الطحاوية، ص(٣٣٨).

(٢) عبيد بن عمير بن قتادة المكي، الواعظ المفسر، ولد في حياة الرسول ﷺ، وكان من ثقات التابعين وأئمتهم بمكة، وكان يذكِّر الناس، فيحضر ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مجلسه، مات قبل ابن عمر بأيام قليلة، وقيل: توفي سنة أربع وسبعين من الهجرة.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، (٤/ ٥٣٤)، حديث رقم (٨٧٦٨)، وابن أبي شيبَة في مصنفه، (٧/ ١٦٤)، حديث رقم (٣٥٠٠٤).

اعـتراف ... كلمةٌ أخيرةٌ ومستحقة

لقد أحببت أن أكون شاهدًا على العصر وراويًـا للواقـع، وبما أن الكتاب يخاطب الواقع ولا ينفصل عنه، فقـد تكلمـت بلسان الواقع الذي امتلأ بدوافع الإرهاب وأسـبابه، وبالبيئـة الخصبة لفتنة التكفير؛ حتى وقع الضـحايا مـن شـبابنا الـذين أهملناهم ونسيناهم وسقطوا في كـل هـذه السَّـوْءات، فلسـان حال الواقع هو الذي يسأل في العنوان بلسان حـال الشـباب: **لماذا أنا إرهابي؟! ولماذا أنت كافر؟!**

والكتاب هكذا يشير بأصابع الاتهام إلى المجتمع والنخبـة وأهل العلم والمؤسسـات التربويـة والساسـة، يـتهم الجميـع بالتقصير والنسيان حينًا والغفلة حينًا آخر.

كم من أستاذ جـامعي ومعلـم بالمـدارس وشـيخ بالمسـجد تاجروا بالكلمة، لتحقيـق شـهرة أو مغـنم مـادي عـلى حسـاب القيم، وتم اغتيال الأسوة والقدوة من صفوة المجتمـع، وإعـلام الإثارة والمنفعة (**ادفع وقووول**)، فلم تعـد بـرامجهم وأقلامهـم للبناء بقدر ما هي للمصالح الشخصية، وكم من نائب بمجلـس الشعب لم يحترم التشـريع الـذي شرعـه بـالمجلس، مـن خـلال

الوساطات والطلبات التي يقدمها النواب إلى الوزراء، وكلها خرق للتشريع والقانون الذي شرعوه، وما لم يحترم أهل التشريع تشريعهم فلن يحترمه أحد!!!

وكم من مسؤول في السلطة التنفيذية طعن العدالة في تنفيذ للقانون غير محايد وغير عادل، فلا يطبق القانون على كبار المجتمع.

وهكذا... عَمَّ الفساد وصار قاعدة غالبة، فكان المنتج مشوهًا، فخرج الفكر التكفيري، والإرهابي، والبلطجة، وأطفال الشوارع، والمتاجرة بالأعضاء البشرية .. وهلم جرا..

ولله دَرُّ القائل:

هيهات تجني سكرًا من حنظل

فالشيء يرجع في المذاق لأصله

ولا أستثني نفسي فأتكلم بثقافة إبراء الذمة، بل إن هذه الاتهامات موجهة إليّ قبل الجميع.

إن لائحة الاتهام في الكتاب تتهم الجميع بأنهم تركوا الشباب فريسة سائغة للمتربصين بنا وبشبابنا، ولحملاتهم

المسمومة على العقل المسلم بالشبهات والافتراءات، وعلى القلب المسلم بالشهوات، وحملات التغريب واستلاب الهوية التي لا تهدأ ليل نهار، إن إدانة الظاهرة لا يكفي، بل لابد من الوقوف على الدوافع والأسباب، والنظر فى الحلول العملية الناجعة، وتحمل المسؤولية تجاه أعظم ثروة في الوطن: الإنسان وبخاصة الشباب.

وهكذا جاءت سطور الكتاب أشبه بصرخة قوية في وجه المجتمع: **فهل وصلت الرسالة؟!**

وختـامًـا:

فإن الفكر يُواجَه بالفكر وحسن التربية، وإحيـاء الأُسـوة والقدوة، وتوصيات هذه الدراسة ونتائجها تتركز في المحـاور الآتية من أجل علاج ظاهرتي الإرهاب والتكفير:

- العلاج الأمثل للغلو وما يـؤدي إليـه مـن عنـف وإرهـاب داخـل المجتمعـات الإسـلامية، إنـما يكـون ببنـاء الـوعي الصحيح، وإحياء علم المقاصد، والتفكير العلمي، واعـتماد الـدليل العقـلي والـدليل العلمـي، وإحيـاء ثقافـة الحـوار، والتعددية الفكرية، وقيم الإبداع والجمال في القرآن والسنة.
- ومن الأهمية بمكان ملء الفراغ الفكـري لـدى الشـباب حتى لا يملأه غيرنا بما يخدم مصالحه.
- ومن أهم المهم إزالة الصدام بـين المؤسسـات التـي تعمـل في جانب الفكر والمعرفة وبناء القـيم: «**وزارة الثقافـة ومؤسسـة الأزهر والأوقاف والتعليم**»، واجتماع هـذه المؤسسـات عـلى رؤية تجمعها، في تعاون وتناغم؛ وإلا فـنحن نشـرذم شـبابنا ونصنع الانقسام في المجتمع بأيدينا!!!

وحين تتناغم جهـود وزارة الثقافـة مـع وزارة التربيـة والتعليم مع الأزهر ومؤسساته؛ يمكننا بحق أن نقضي

على حالة الصراع الفكري الذي وصل لحد الاتهامات والتعالي والتنافر...! فالاختلاف شيء والتنازع والصدام والصراع شيء آخر.

- علاج المشكلات الاجتماعية من فقر ومرض وجهل، وعلاج البطالة وأمراضها، وتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص للجميع دون انحياز لمصالح فئة أو تيار أو حزب؛ لأن المساواة في الحقوق والواجبات واجب أساسي في الإسلام وهو من حقوق الإنسان، والعدل أساس الملك، والشورى عماد نظام الحكم في الإسلام، وذلك حتى ينعم المجتمع بالأمن المنشود، فالأمن في العدل، والاضطراب في الجور والظلم.
- تحرير المصطلحات الشرعية وضبطها بضوابط واضحة حتى لا يستغلها هؤلاء المغالون والمفسدون في الأرض، وذلك مثل مُصطلح الجهاد، ودار الحرب، ودار الإسلام، وغيرها من المصطلحات التي تُثار على الساحة الإسلامية ولها تأثيرات قوية، والمواجهة العقلية والعلمية لكل ما يُثار من أسئلة خاطئة وشبهات باطلة، لقد علَّمنا القرآن الكريم ألا تبقى أسئلة دون أجوبة ولا شبهات دون ردود.

- تطوير المناهج الدينية في جميع المراحل التعليمية لتخاطب إنسان العصر، والاهتمام والعناية بإعداد وتدريب الأئمة وعلماء الدين وأساتذة التربية الدينية، وتشجيعهم ودعمهم ليكونوا قدوة حسنة لطلابهم وأبنائهم.
- فتح باب الحوار الديني لمناقشة الآراء التي فيها غلو وتشدد وبيان فساد هذه الآراء بالفكر والحجج الواضحة، وهذا يتحقق من خلال إتاحة منابر التوعية بمختلف صورها لعلماء الدين الوسطي الصحيح.
- **وللقانون دور**: فينبغي ألَّا يفلت أصحاب الفكر المنحرف المتطرف من تطبيق العقاب الرادع؛ وذلك من أجل حماية المجتمع من ارتكاب مثل هذه الجرائم المخلة بأمنه، ولقد كان القرآن الكريم واضحًا حاسمًا في هذه القضية؛ حيث قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

(نعم .. إن الله يَزَعُ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن).

- **بيان حقائق الوسطية والتيسير في الإسلام:**

حيث إن الوسطية هي أبرز خصائص هذا الدين، وقد دلَّت على ذلك الشواهد المتعددة من القرآن الكريم والسنة النبوية، فالغُلو اختيار خاطئ وانحياز باطل من المتشددين، كان سببًا من أسباب هلاك الأمم قبلنا، والقاعدة أنه لا إفراط ولا تفريط، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

- إن الاختلاف الإيجابي (اختلاف التكامل) سُنَّة من سُنَن الله في خَلْقِه، وهو ظاهرة إيجابية، والتعدد والتنوع مظهر كوني، والواحدية لله وحده، ولكن المشكلة في الاختلاف السلبي الذي يؤدي إلى الخلاف والتقاطع والتنازع، وهو من أخطر ما أصيبت به الأمة في عصرنا الحالي، ولقد حذرنا الله تعالى منه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].
- إن التيسير ورفع الحرج من أعظم مقاصد هذا الدين، ولقد جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، حاسمًا واضحًا في هذا الخصوص؛

ومن ثم كانت قاعدة «الأصل في الأشياء الإباحة»، و«الضرورات تبيح المحظورات»، و«المشقة تجلب التيسير»، إنها الشريعة السمحة السهلة اللينة، (فلن يُشاد الدين أحد إلا غلبه)، ولقد تجلَّت قاعدة التيسير في كل مظاهر الدين الإسلامي وفي كل جوانبه.

- إن الإسلام ليست له مشكلة في التعامل مع الآخر؛ فقد جعله الإسلام جزءًا من نسيج الأمة؛ فكانت القاعدة أن (لهم ما لنا وعليهم ما علينا)، فالإسلام هو الدين الخاتم، وهو دعوة للناس كافة، ورسوله رحمة للعالمين؛ ولذلك استوعب في تشريعه كل الحضارات والمِلَل والشرائع الأخرى.
- إن الأديان كلها ـ ومنها الدين الإسلامي ـ لا تدعو إلى التطرف والإرهاب؛ فهي شرائع سماوية جاءت بالمحبة والسلام والرحمة والتسامح، وإن النماذج المتطرفة من أتباع أي دين ليست حجة على الدين؛ بل الدين بنبعه الصافي في الكتب المقدسة التي أنزلها الله تعالى، وفي الأنبياء والرسل، هو الحجة على الناس.

- إن الإسلام لا يخشى النقد، ونحن لا نهاجم ولا ندافع، لا نهاجم أحدًا لأن القرآن علَّمنا مكارم الأخلاق، وأمرنا بقوله: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، ونحن لا ندافع لأنه ليس للإسلام سَوْءَة يُدافَع عنها، وإنما نبيِّن الحقائق، وندعو إلى الحوار العقلي الهادئ بعيدًا عن التعصب، ندعو إلى كلمة سواء، الحجة بالحجة، والدليل بالدليل، ندعو الناس إلى أن تُفرِّق بين الدين وأفعال البشر، وأن الخطأ في الفكر أخطر من الخطأ في الفعل. وأن الإسلام قد اعتمد الدليل العقلي والدليل العلمي.

هذا، وبالله التوفيق، والحمدلله رب العالمين.

المصادر والمراجع

- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين / الرازي؛ مراجعة الدكتور النشار .- القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٣٨م.
- بحوث في العقيدة الإسلامية / مصطفى حلمي .- الإسكندرية: دار الدعوة، ١٩٨٤م.
- تاريخ الجدل/ محمد أبو زهرة .- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٠م.
- تاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين/ علي مصطفى الغرابي.- القاهرة: المكتبة الحسينية، ١٩٤٨م.
- تاريخ المذاهب الإسلامية / محمد أبو زهرة .- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧١م.
- التبصير في الدين / الإسفراييني.- القاهرة: مطبعة الأنوار،١٩٥٥م.
- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع/ الملطي.- بغداد: المثنى، [؟-١٩].
- شرح الأصول الخمسة/ القاضي عبد الجبار؛ تعليق الإمام أحمد بن الحسين بن أبي هاشم؛ تحقيق عبد الرحمن العثمان.- القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٦٥م.
- شرح جوهرة التوحيد / الباجوري.- القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي،[؟-١٩]
- شرح مقاصد الطالبين / التفتازاني .- بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٩م.

- صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام / السيوطي؛ نشر وتعليق علي سامي النشار.- ط١ .- القاهرة: مطبعة السعادة
- فجر الإسلام / أحمد أمين .- القاهرة: [د.ن]، ١٩٢٨م.
- الفرق بين الفرق / البغدادي؛ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .- بيروت: مكتبة صبيح،١٩٨٥م.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل / ابن حزم الظاهري الأندلسي .- القاهرة: مطبعة السلام العالمية، ١٣١٧ هـ.
- الملل والنحل / الشهرستاني .- القاهرة: مطبعة السلام العالمية، ١٩٥٦ م.
- نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية / يحيى هاشم حسن فرغل .- القاهرة: [د.ن] ،١٩٧٢م.
- الخوارج وقضية التكفير / عامر النجار.- القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٦م.
- صحيح البخاري/ البخاري .- ط١ .- القاهرة: دار الصفوة،١٩٩٤م.
- صحيح مسلم / مسلم؛ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.- القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٤م.
- القرآن وصحوة العقل/ محمد محمد داود.- القاهرة: دار المنار، ٢٠٠٤م.
- لسان العرب / ابن منظور.- ط٣.- بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ.

- تفسير القرآن العظيم / ابن منظور؛ تحقيق محمد حسين شمس .- ط١ .- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ.
- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان / ابن حبان؛ تحقيق شعيب الأرنؤوط .- ط١ .- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٨م.
- المحكم والمحيط الأعظم / ابن سيده؛ تحقيق يحيى الخشاب .- ط١ .- القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ١٩٩٨م.
- معجم مقاييس اللغة / ابن فارس؛ تحقيق عبد السلام محمد هارون .- ط١ .- بيروت: دار الجيل، ١٩٩١م.
- تاج العروس/ الزبيدي؛ تحقيق عبد الستار أحمد فراج .- الكويت: وزارة الإرشاد والأنباء، ١٩٨٤م.
- تفسير الشعراوي / محمد متولي الشعراوي.- القاهرة: دار أخبار اليوم، ١٩٩١م.
- سنن أبي داود / أبو داود السجستاني؛ تعليق أحمد سعد علي .- ط١ .- القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٢م.
- نيل الأوطار / الشوكاني؛ تحقيق عبد المنعم إبراهيم .-ط١.- القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٧م.
- المعجم الكبير / الطبراني؛ تحقيق حمدي عبد المجيد .- القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ١٩٨٥م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها / الألباني .- ط٤ .- دمشق: المكتب الإسلامي، ١٩٨٥م.
- سنن الترمذي/ الترمذي.- القاهرة: جمعية المكنز الإسلامي، ٢٠٠٠م.

- الإرهاب صناعة غير إسلامية / نبيل لوقا بباوي .- القاهرة .- دار البباوي للنشر، ٢٠٠٢م.
- المفردات في غريب القرآن / الراغب الأصفهاني؛ تحقيق صفوان عدنان الداودي .- ط١ .- بيروت: دار القلم، ١٤١٢هـ.
- جامع البيان في تأويل القرآن / أبو جعفر الطبري؛ تحقيق أحمد محمد شاكر .- ط١ .- بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م.
- زاد المسير في علم التفسير / ابن الجوزي؛ تحقيق عبد الرزاق المهدي .- ط١ .- بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٢هـ.
- مسند الامام أحمد بن حنبل / ابن حنبل .- ط١ .- بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩١م.
- سنن النسائي / النسائي .- القاهرة: دار الحديث، ١٩٨٧م.
- موسوعة بيان الإسلام: الرد على الافتراءات والشبهات / نخبة من العلماء .- ط١ .- القاهرة: دار نهضة مصر، ٢٠١١ م.
- السيرة النبوية / ابن هشام؛ تحقيق طه عبد الرءوف سعد.- القاهرة: شركة الطباعة الفنية المتحدة، ١٩٧٤م.
- دلائل النبوة / البيهقي؛ تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان .- ط١ .- المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ١٩٦٩م.
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة / محمد حميد الله الحيدر آبادي الهندي.- ط٦ .- بيروت: دار النفائس، ١٤٠٧ هـ.
- الموطأ / مالك بن أنس .- ط٣ .- القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٨٧م.

- المصنف / عبد الرزاق الصنعاني؛ تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي .- بيروت: المجلس العلمي، ١٩٧٠م.
- المصنف / ابن أبي شيبة .- ط١ .- بيروت: دار الفكر، ١٩٨٩م.
- المستدرك على الصحيحين / الحاكم النيسابوري .- ط١ .- بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٦م.
- سنن الدارقطنى / الدارقطني ؛تحقيق السيد عبد الله هاشم .- القاهرة: دار المحاسن للطباعة، ١٩٦٦م.
- شرح العقيدة الطحاوية / ابن أبي العز؛ تحقيق الألباني .- ط٦ .- بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨١م.
- فقه تيسير الحج / محمد محمد داود .- القاهرة: دار المنار، ٢٠١٣م.
- المغنى والشرح الكبير على متن المقنع / ابن قدامة.- ط١ .- بيروت: دار الفكر،١٩٨٤م.

فهرس الموضوعات

الموضـــوع رقـم الصفحـة

- مقدمة........................ ٥
- المحنة .. ومسلسل الفوضى الخلاقة ٩

المبحث الأول: فتنة التكفــير ١٧

- تنبيهات مهمة ٢٢

١- عدم التكفير بارتكاب الذنوب والمعاصي ٢٢

٢- عدم التكفير بالخطأ أو باعتبار لازم القول ٢٣

٣- الإعذار بالجهل ٢٣

٤- الإعذار بالإكراه ٢٣

٥- الإعذار بالتقليد ٢٤

- أهـــم شبهـات المكفــرين والرد عليها............ ٢٥

١- شبهة التكفير بالمعصية ٢٥

٢- شبهة تكفير الحاكم ٣٤

٣- شبهة تكفير الأتباع المحكومين إذا رضوا بالحكم بغـير ما أنزل الله ٣٥

٤- شبهة تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار كفر............ ٣٨

المبحث الثاني: في مواجهة العنف والإرهاب ٤١

- تحديد المصطلحات والمفاهيم ٤١

الموضـــوع رقـم الصفحـة

- أين نشأ الإرهاب ومتى؟ ٤٦
- ما أسباب ظهور الجماعات الإرهابية المتطرفة؟ ٤٩

(١) الأسباب الفكرية ٥٠

أ- الاختراق الثقافي والفوضي الخلاقة (الهدامة) ٥٠

ب- عدم الوعي بفقه مقاصد الشريعة بشكل عام ٥٥

جـ- عدم الوعي بمقاصد الجهاد وحقيقة معناه..... ٥٦

د - الفهم الخاطئ لنصوص الكتاب والسنة ٥٧

هـ- إعمال المفاهيم الموروثة أو الثقافات المضادة دون فحص أو تمحيص ٦٢

و- إهمال فقه الواقع ٦٣

ز- إهمال فقه الأولويات..... ٦٣

حـ- غياب التفكير العلمي ٦٦

(٢) الأسباب النفسية ٦٨

- اغتراب الشباب..... ٦٨

(٣) الأسباب السياسية ٧٣

- الانحراف بالقانون وثقافة الفساد ٧٤

(٤) الأسباب الاجتماعية ٧٨

(٥) الأسباب الاقتصادية ٨٠

الموضـــوع **رقـم الصفحـة**

(٦) ضعف المؤسسات التعليمية والدينية وتنازعها ٨٠
(٧) الفجوة الخطيرة ٨٢
(٨) غول الفساد وثقافة القبح ٨٤
- شبهة مردودة: هل الإسلام أمر بالقتل والإرهاب؟! .. ٩٠
- شهادة بابا الفاتيكان..... ٩٧
- شهادة منصف: (الإرهاب لا دين له) ١٠٠
- ترويع الآمنين بين انحراف الفكر وكيد الأعداء ١٠٣
- الرصاصة الذكية؟! ١٠٧
- لماذا كل هذا العداء ضد المسلمين؟..... ١١١
المبحث الثالث: الوسطية ١١٥
- **لماذا الوسطية؟!**..... ١١٥
  - تمهيد: مفهوم الوسطية ١٢١
- **مظاهر الوسطية الإسلامية** ١٢٥
أولا: مظاهر الوسطية في هدْي القرآن الكريم..... ١٢٦
ثانيًا: مظاهر الوسطية في هدْي السنة النبوية المطهرة ١٢٩
تطبيقـات عـلى الوسـطية (في العقيـدة والعبـادة والأخـلاق والمعاملات) ١٣٤

الموضـــوع رقـم الصفحـة

أولاً: الوسطية في العقيدة ١٣٤
- الوسطية في التوكل على الله ١٣٥
- أم السائب رضي الله عنها ودرس في الوسطية ١٣٧

ثانيًا: وسطية الإسلام في الأخلاق والتعامل والسلوك ١٣٩
- وسطية الإسلام بين البخل والإسراف ١٤٣
- وسطية الإسلام في الحرية ١٤٧
- وسطية الإسلام في موقفه من المرأة والأسرة ١٥١
- وسطية الإسلام في بناء الأسرة ١٥٤
- وسطية الإسلام في الاختلاف ١٥٧
  - الاختلاف سُنة من سُنن الله الكونية ١٥٧
  - اختلاف الأمم السابقة (اختلاف التنازع والتضاد) ١٦٥
- وسطية الإسلام في التعامل مع الآخر ١٦٦

المبحث الرابع: التيسير ورفع الحرج منهج إسلامي ١٧٥

١ـ الأمور بمقاصدها ١٧٨

٢ـ الأصل في الأشياء الإباحة ١٨٠

٣ـ درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ١٨١

٤ ـ الضرورات تبيح المحظورات «خاصة بالمُحرَّمات» ... ١٨٢

٥ـ المشقة تجلب التيسير «خاصة بالطاعات» ١٨٣

الموضـــوع رقـم الصفحـة

- **من مظاهر التيسير ورفع الحرج في التشريع الإسلامي**.....١٨٩
  (أ) مراعاة سنة التدرج في التشريع ١٨٩
  (ب) مظاهر التيسير في تشريع العبادات.....١٩١
  (جـ) في أداء الكفارات ٢٠٣
  (د) مظاهر التيسير في الفتوى.....٢٠٤
- **اعـــتراف ... كلمةٌ أخيرةٌ ومستحقة**.....٢١٥
- **وختامًا**.....٢١٨
- **المصادر والمراجع** ٢٢٥
- **فهرس الموضوعات**..... ٢٣١

مؤلفات د. محمد داود

- **في مجال الدراسات اللغوية:**

١) القرآن الكريم وتفاعل المعانى (جزءان)، نشر دار غريب.

٢) الدلالة والحركة فى العربية المعاصرة، نشر دار غريب.

٣) الدلالة والكلام فى العربية المعاصرة، نشر دار غريب.

٤) العربية وعلم اللغة الحديث، نشر دار غريب.

٥) الصوائت والمعنى فى العربية، نشر دار غريب.

٦) اللغة والسياسة فى عالم ما بعد ١١ سبتمبر، نشر دار غريب.

٧) حرب الكلمات فى الغزو الأمريكى للعراق، نشر دار غريب.

٨) دموع الشوباشى بين يدى سيبويه، نشر شركة يمامة للإنتاج الإعلامى.

٩) اللغة وكرة القدم، نشر دار غريب.

١٠) لغويات محدثة، نشر دار غريب.

١١) جسد الإنسان والتعبيرات اللغوية، نشر دار غريب.

١٢) كمال اللغة القرآنية بين حقائق الإعجاز وأوهام الخصوم، نشر دار المنار.

١٣) معجم التعبير الاصطلاحى فى العربية المعاصرة، نشر دار غريب.

١٤) معجم ألفاظ الكلام فى العامية المعاصرة، نشر دار غريب.

١٥) المعجم الوسيط واستدراكات المستشرقين، نشر دار غريب.

١٦) معجم الفروق الدلالية بين كلمات القرآن، نشر دار غريب.

١٧) جدلية اللغة والفكر، نشر دار غريب.

١٨) كلمات القرآن عبر الزمن (لماذا كتب لها الخلود؟)، نشر دار الهلال.

١٩) اللغة فى محراب القدس (شريك المقاومة وسجل الحقائق)، نشر دار الهلال.

٢٠) الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم فى ضوء علم اللغة الحديث، نشر دار الهلال.

٢١) عزيزى الملحد (أسئلة الملحدين أمام العقل والعلم)، نشر دار نهضة مصر.

٢٢) اللغة كيف تحيا؟! ومتى تموت؟!، نشر دار نهضة مصر.

٢٣) اللغة والقوة والحوب اللغوية، نشر دار نهضة مصر.

- **فى مجال تحقيق التراث:**

٢٤) كشف المعانى فى متشابه المثاني، لابن جماعة، نشر دار المنار.

٢٥) شرح كافية ابن الحاجب، لابن جماعة، نشر دار المنار.

٢٦) مشتبهات القرآن الكريم، للكسائى، نشر دار المنار.

٢٧) معجم الألفاظ القرآنية، للقليبى، نشر دار الآداب.

٢٨) المختار من مدائح المختار ﷺ للشاعر الشهيد يحيى الصرصرى، نشر دار المنار.(فاز هذا الكتاب بجائزة مجمع اللغة العربية عن تحقيق التراث لسنة ٢٠٠٤).

٢٩) تحية الوداع للأديب كامل كيلانى، نشر دار المنار.

- **في مجال الدعوة الإسلامية:**

٣٠) آلام أمة بين القدس وغدر اليهود، نشر دار المنار.

٣١) مواقف وعبر (٥جـ × ١مجـ)، نشر دار المنار.

٣٢) موعظة البقاع الشريفة بمكة والمدينة، نشر دار المنار.

٣٣) القرآن وصحوة العقل، نشر دار المنار.

٣٤) الملاذ الآمن، نشر دار المنار.

- **موسوعات بالاشتراك:**

٣٥) موسوعة بيان الإسلام الرد على الشبهات، نشر دار نهضة مصر.

٣٦) المعجم الموسوعى للتعبير الاصطلاحى فى اللغة العربية، نشر دار نهضة مصر.